الإتجاه الأدبي في تفسير القرطبي

دكتور محمود جمعة أمين
أستاذ الأدب والنقد المساعد بالكلية

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد

فما أروع أن يعيش الانسان فى رحاب القرآن الكريم ؟ ينعم بآياته ، ويستروح بنسماته ، ليجد فى دوحته الأمن والاطمئنان ، وليستمد منه القوة ، قوة الايمان بالله الواحد القهار ، وليستنزل به رحمات الله ، وما أشد حاجة الانسان الى رحمات الله عز وجل ، لتستقيم له الحياة ، وليحيا حياة طيبة كريمة .

ولا ريب فى أن القرآن الكريم حياة هذه الأمة وسراجها ، الذى ينير لها السبل ، فيهديها الى ما يحييها ، ويصلح بالها ، ويقوم من معوجها كما قال سبحانه « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم »(١) .

---

(١) سورة المائدة آية ١٥ ، ١٦ .

وغنى عن البيان أن حياة لغتنا العربية فى هذا القرآن الكريم ، فلا يعرف التاريخ لغة ارتبطت واتصلت حياتها بكتاب مقدس مثل ما اتصلت وارتبطت حياة العربية بالقرآن الكريم .

« ولسنا نعرف درسا آصل ولا أعمق من درس يصل بين العربية والقرآن »(٢) .

ولقد وعى سلفنا الصالح هذا الدرس ، فأكبوا على كتاب الله يستظهرون آياته ويستخرجون لآئه وأسراره،يبينونها للناس تفسيرا وتأويلا ، ووقفوا حياتهم على هذا الكتاب العزيز درسا وعبادة .

من هؤلاء محمد بن أحمد القرطبى رحمه الله ، وأجزل له المثوبة ، والذى أقبل على القرآن الكريم يفسره ويستظهر آياته ، مستنبطا منها الأحكام الشرعية بفكر أدبى واع ، وأسلوب بيانى واضح ، لا تعقيد فيه ولا التواء .

وقبل أن أخوض غمار هذا الفكر ، وألج بابه ، أرى أن ألقى الضوء فى نبذة وجيزة ، والمامة سريعة ، على القرطبى حتى تكون الفائدة من البحث عن اتجاهه الأدبى أكثر ، والنفع به أعم وأشمل ، ولتكتمل فى الأذهان صورة هذا العالم الفقيه الأديب فكرا وحياة .

فمن هو ؟ انه الامام الفقيه المفسر المحدث اللغوى محمد بن أحمد ابن أبى بكر بن فرح الأنصارى الخزرجى الأندلسى .

---

(٢) انظر مقدمة اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص ١ د/ الراجحى مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦٩م .

مولده وحيـاته :

ولد فى قرطبة من بلاد الأندلس ، وتلقى بها ثقافة واسعة فى الفقه والنحو والقراءات ، ثم وفد الى مصر مع من وفد اليها من علماء الأندلس آنذاك ، اذ كانت بلادهم فى ذلك الحين ، تتخطفها الفرنجة فآثروا البقاء فى مصر ، لما كانت تتمتع به من الاستقرار السياسى واستقر القرطبى فى مدينة (المنيا) من صعيد مصر • وكان — رحمه الله — من العابدين الركع السجود ، والزاهدين فى الدنيا ، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة وكانت أوقاته كلها مقسمة بين عبادة ربه وبين التأليف فيما ينفع الناس ويبصرهم بأمور دينهم وأحكام كتاب ربهم ، حتى أخرج للناس كتبا مفيدة انتفعوا بها •

وظل فى مدينة (المنيا) مقيما بها الى أن وافته منيته ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ ودفن بها(٣) •

اتجاهه الأدبى فى تفسير القرآن الكريم :

كان القرطبى ذا حس صادق ، بصيرا بأساليب العربية وفنونها لخبيرا بمواقع كلماتها وعذوبة ألفاظها وحسن موسيقاها ، مؤمنا بأن لغة العرب لسان الله عز وجل والتى نزل بها الكتاب العزيز لا تدانيهـا لغة فصاحة وبيانا •

---

(٣) انظر ترجمته فى : شـذرات الذهب فى أخبـار من ذهب لابن العماد الحنبلى طبع بيروت بدون تاريخ ونفـح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى تحقيق احسـان عباس دار صـادر بيروت سنة ١٩٦٨م وطبقات المفسرين للسـيوطى طبع ليدن سـنة ١٨٣٨م ، والحياة العقلية للدكتور أحمد أحمد بدوى طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٧٢م •

ولايمـــان القرطبى بالدور العظيم الذى تقوم به تلك اللغـــة ـــ بفروعها المختلفة ـــ فى الكشف عن أسرار القرآن ومراميه وأغراضه ومعانيه ، صدر كتابه بما ينبغى لصاحب القرآن أن يأخذ نفســـه به ، فذكر عدة وجوه ينبغى لحامل القرآن أن يتزود بها ، من تلك الوجوه :

أن على صاحب القرآن أن يعرف الاعراب والغريب فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ ويزيل عنه الشك فيما يتلو •

ويذكر أن أبا جعفر الطبرى سمع « الجرمى » يقول : أنا منذ ثلاثين سنة أفتى الناس فى الفقه من كتاب « سيبويه » وكان الجرمى صاحب حديث فلما علم كتاب سيبويه تفقه فى الحديث اذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفسير ثم ينظر فى السنن المـــأثورة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فبها يصل الطالب الى مراد الله عز وجل فى كتابه فتفتح له أحكام القرآن فتحا(٤) •

ويورد جملا من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم فيما جاء فى اعراب القرآن وتعليمه والحث عليه وثواب من قرأ القرآن معربا وذم اللحن وكراهيته •

من ذلك ما حدث به الضـــبى بســـنده الى أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أعربوا القرآن والتمســـوا غرائبه » • وما حدث به أبو الطيب الروزى مرفوعا الى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فلم يعربه وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حـــرف عشر حسنات ، فان أعرب

---

(٤) تفسير القرطبى ص ١٨ طبع دار الشعب بدون تاريخ •

بعضه وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسنة ، فان أعربه وكل به أربعة أملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة »(٥) .

ويروى عن أبى مليكة أن أعرابيا فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم من البادية فقال : من يقرئنى مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل « براءة » فقال أن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر فقال الأعرابى : أو قد برىء الله من رسوله ؟

فان يكن الله برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابى فدعاه فقال يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين انى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى فأقرأنى هذا سورة براءة ، وذكر الأعرابى لحن الرجل ، فقال عمر ليس هكذا يا أعرابى ، قال فكيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقرأ عمر ورسوله بالرفع فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه ، فأمر عمر — رضى الله عنه — ألا يقرىء الناس الا عالم باللغة(٦) .

وعن الدور الهام الذى يضطلع به الشعر فى تفسير غريب القرآن ومشكله ينقل عن ابن عباس قوله : « اذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر فان الشعر ديوان العرب ... وكان ابن عباس يسأل عن الشىء من القرآن فيقول فيه هكذا وهكذا أما سمعتم الشاعر يقول كذا أو كذا »(٧) .

---

(٥) انظر تفسير القرطبى ص ١٩ .

(٦) انظر تفسير القرطبى ص ٢٠ .

(٧) انظر تفسير القرطبى ص ٢١ .

وينقل عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا سأل عن قول الله عز وجل : « وثيابك فطهر » فأجابه ابن عباس : لا تلبس ثيابك على غدر ، وتمثل بقول غيلان الثقفى :

فانى بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من سوءة أتقنع

ويقول سأل رجل عكرمة عن الزنيم ، فأجابه بأنه ولد الزنا وتمثل ببيت شعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه بغى الأم ذو حسب لئيم

وعنه أيضا أن الزنيم هو الدعى الفاحش اللئيم ثم قال :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم أكارعه

وعنه فى قوله تعالى : « ذواتا أفنان » قال : ذواتا ظل وأغصان ألم تسمع الى قول الشاعر :

اهاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حمامها
تدعو أبا فرخين صادف طائرا ذا مخلبين من الصقور قطامها

وقال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرنى عن قول الله عز وجل: « لا تأخذه سنة ولا نوم » .

ما السنة ؟ قال : النعاس . قال زهير بن أبى سلمى :

لا سنة فى طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا فى أمره فند (٨)

---

(٨) المصدر نفسه ص ٢٢ ، والفند : العجز .

وقد سار القرطبى على هذا النهج فى تفسير كلام الله عز وجل مستشهدا على المعانى التى يميل اليها فى تفسير كلمات القرآن واستظهارها بما ورد فى لغة العرب الخلص •

ومن هنا فان على « من يتصدى لمعرفة لطائف حجة الله ويحرص على استيضاح معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيان أسرار اعجازها وما ترمى اليها من غايات أن يكون ــ على حد قول الزمخشرى ــ فارسا فى علم الاعراب مسترسل الطبيعة تنقادها مشتعل القريحة وقادها يقظان النفس دراكا للمحة وان لطف شأنها منتبها على الرمزة، وان خفى مكانها ، لا كزا جاسيا ، ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دربة بأساليب النظم والنثر ، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم آخذا من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين : تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات قد رجع زمانا ورجع اليه ورد ورد عليه »(٩) •

وعلى هذه الشاكلة كان القرطبى فقد درس البلاغة وعلوم القرآن واللغة فى قرطبة وتلقى بها ثقافات واسعة فى الفقه والنحو والقراءات كما سبق أن ذكرنا •

ثم لما وفد الى مصر زادت معارفه بكثرة مطالعاته حتى أصبح كما يقول من أرخ له : « متبحرا فى جميع فنون العلم مصنفا فيه ، وتدل مؤلفاته على امامته وكثرة اطلاعه ووفور فضله »(١٠) •

---

(٩) مقدمة الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ١٥ طبع دار الفكر سنة ١٩٧٢م •

(١٠) انظر فى ذلك طبقات المفسرين ص ٢٨ ونفح الطيب للمقرى ج ٢ ص ٢١١ ومقدمة ابن خلدون ص ٣٨٤ طبع المطبعة البهية بدون تاريخ

ولهذا رأيناه فى تفسيره المسمى « الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآى الفرقان » لا يقف عند حد ما روى عن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والسلف الصالح ولكنا رأيناه يتخذ ما أفاء الله به عليه من أدوات العلم وسيلة يستعين بها على فهم آى الذكر الحكيم وان كان يعد معرفة ما أثر من ذلك ضروريا لفهم كتاب الله رب العالمين •

نرى ذلك واضحا فى مقدمة تفسيره التى تضمنت خطة منهجه فى تأليف الكتاب • اذ يقول بعد الاستعانة بالله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله : « وبعد : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء الى أمين الأرض ، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى وأستفرغ فيه منتى بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير واللغات والاعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما تذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعا بين معانيهما ومبينا ما أشكل منهما بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف ، وعمله تذكرة لنفسى وذخيرة ليوم رمسى وعملا صالحا بعد موتى •

وشرطى فى هذا الكتاب اضافة الأقوال الى قائليها والأحاديث الى مصنفيها فانه يقال : من بركة العلم أن يضاف الى قائله••وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين الا ما لابد منه ولاغناء عنه للتبيين »(١١) •

وكما يفصح هذا الأسلوب عن ورع صاحبه وتقواه يفصح كذلك عن أديب ملك ناصية البيان •

---

(١١) تفسير القرطبى ص ٢ ، ٣ •

ولنعش الآن مع بعض النماذج التطبيقية من خلال تفسيره لكتاب الله العزيز لنرى فيها أديبا ناقدا ذواقة وليتبين لنا اتجاهه الأدبى الذى قاده لابراز أسرار التنزيل التى هى بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم الأريب ويذل عن تبصر الأديب اللبيب .

وقبل أن أمضى مع نماذجه التفسيرية لأدلل منها على اتجاهه الأدبى فى القرآن الكريم أرى من المناسب أن أذكر القارىء الكريم بأن العمل الأدبى يتكون من عناصر أساسية فى تفسير القرآن الكريم وهى : الشكل والمضمون،وقدسية القرآن فى التعامل معه بمصطلحات الأدب والنقد .

فأما الشكل فهو التعبير أو الأسلوب أو نظم الكلام . انه الأداة التى بواسطتها ينقل الأديب فكره واحساسه المضمر فى النفس الى الناس وقد وشاه بصور الخيال وظلاله فيؤثر فى نفوسهم ويدفعهم الى مشاركته الوجدان فيما أحس به ازاء النص الأدبى .

وأما المضمون فهو الفكرة أو المعنى وهى قيمة تظل مضمرة فى النفس خفية مكنونة مستترة حتى يبرزها الأديب فى الصورة التعبيرية الموشاة بصور الخيال من مجاز وتشبيه واستعارة حتى تؤثر فى نفوس المتلقين وتحملهم على مشاركة الشعور والوجدان والأحاسيس .

وأما قدسية القرآن الكريم فى التعامل معه بمصطلحات الأدب والنقد . وهو ما يجب أن يكون فى التعامل مع القرآن الكريم ، لأنه ليس من كلام البشر كالشعر والقصة وسائر فنون الأدب وأجناسه ، وانما هوكلام الله عزوجل المقدس الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وكما قال الله عز وجل : « وان هذا

صراطى مستقيما فاتبعـــوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »(١) ، فلا تستعمل المصطلحات الأدبية والنقدية فى أجناس الأدب مع القرآن الـــكريم ، لنترفع عن قـــول النقاد فى القرآن الكريم : « الفن القصصى » ، و «التصوير الفنى»، و « الصورة الأدبية » ، و « الصورة الفنية » ، و « الأسلوب الفنى » وما أشبه ذلك من مصطلحات الأدب البشرى ، وانما الأدق والأولى والأنسب مع قداســـة القرآن كلام الله أن ننسب كل تعبيراتنا الأدبية والنقدية الى القرآن الكريم ، ليتميز أدب القرآن عن غيره ، فنقول : «الأسلوب القرآنى» ، و « التعبير القرآنى » ، و «النظم القرآنى»، و «التصوير القرآنى» ، و «النسق القرآنى» ، و «الايقاع القرآنى»، و « الموسيقى القرآنية » ، و« الأدب القرآنى » ، وهكذا ، لأنه كلام الله المقدس(٢) .

والسؤال الآن : هل اتجه القرطبى بالفـــكر الذى مضى يفسر به القرآن الكريم الى هـــذه العناصر ؟ وعلى ضـــوئها شرع يفسر آى الذكر الحـــكيم ؟ .

هذا ما سنحاول الاجابة عنه ـــ ان شاء الله ـــ من خلال العناصر الأدبيـــة الآتية :

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ .

(٢) منقول بتصرف ، انظر فى بحث : التصوير القرآنى د. على على صبح مجلة الوعى الاسلامى عدد ٢٠٣ فى سبتمبر ١٩٨١م وكتاب الأدب الاسلامى بين النظرية والتطبيق د. على على صبح ص ٦٠/٦٣ الجزء الأول القاهرة سنة ١٩٨٧م ـــ ١٤٠٨هـ وبحث : التصوير القرآنى لتعاقب الليل والنهار مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الثالث عشر عام ١٩٩٥م ـــ ١٤١٥هـ .

١ ــ قيمة اللفظ وايحاءاته الأدبية فى تفسير القرطبى :

لم يفت القرطبى ــ رحمه الله ــ أن ينبه الى ما توحى به الألفاظ فى النص القرآنى والى بيان قيمتها الأدبية فى ابراز أسرار القرآن الكريم ووجوه اعجازه • فقد تنبه لايحاءات الألفاظ وما تلقيه من ظلال • فرأى أن اللفظ رمز لمعناه فالكلمة رمز للفكرة وقيمتها فيما ترمز اليه وتوحى به • فليس الفهم الأدبى وقوفا عند الأدلة اللغوية فى الأساليب القرآنية ، وانما هو ذهاب وراء هذه الأساليب وبحث فى أضواء كلماتها وتسمع لهمسات ايحاءاتها • وقد أولى القرطبى عنايته الى اللفظ بالقدر الذى أولاه الى المعنى فنظر الى المفردة القرآنية مبينا قيمتها فى موضعها ، ايمانا منه بأن دراسة المفردات من أوجب ما يجب على دارس الأدب بصفة عامة ودارس القرآن الكريم ومفسر نصوصه بصفة خاصة لأنها أى المفردة مفتاح النص وزمام ما فيه من دقيق المعانى وخفى الاشارات •

والقرطبى حينما وقف ليعالج اللفظ فى القرآن الكريم مبينا أهميته فى التعبير لم ينظر الى الكلمة من حيث انها لفظ مجرد وانما وقف عند مفرداته مشيرا الى تمكن الكلمة فى سياقها وملاءمتها لصاحبتها وتآخيها وتناسبها ومحاولة الكشف عن الأسس التى سار عليها نسق الجمل والآيات وكيف تترابط وتتوحد حتى كأن بعضها يأخذ بحجز بعض •

ونعرض هنا لبعض النماذج التى توضح ذلك •

من ذلك ما توحى به لفظة « الزاد » واقترانها بكلمة «التقوى» فى قوله تعالى : « فان خير الزاد التقوى » حيث يقول : « وفى هذا

القول تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار • قال أهل الاشارات:

ذكرهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى فان التقوى زاد الآخرة • قال الأعشى :

اذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

فقد أدرك ما توحى به اللفظتان : الزاد والتقوى — متجاورتين — من المعانى البعيدة عن متن ألفاظها •

وفى ملاءمة اللفظة ومناسبتها للتى تليها نجد القرطبى يقول فى قوله تعالى « واتقون يا أولى الألباب » : « خص أولى الألباب بالخطاب — وان كان الأمر يعم الكل — لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله وهم قابلوا أوامره والناهضون بها »(١٢) •

وقد وجدناه فى كثير من تفسيره يستبطن ظواهر النصوص ليستنبط ما توحى اليه تلك النصوص بألفاظها من أحكام فقهية وأدلة شرعية تتعلق بالاباحة أو المنع فيما يختص بأمور الدين من ذلك ما يقوله — على سبيل المثال — حين يعرض لقول الله عز وجل من سورة البقرة « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » اذ يقول « وابتغاء الفضل ورد فى القرآن بمعنى التجارة قال الله تعالى « فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ثم يقول : « واذ ثبت هذا ففى الآية دليل على جواز التجارة فى الحج للحاج مع أداء

---

(١٢) تفسير القرطبى ص ٧٨٥ •

العبادة وأن القصد الى ذلك لا يكون شركا ولا يخرج به المكلف عن رسم الاخلاص المفترض عليه »(١٣) .

وقد اجتهد القرطبى ما وسعه الاجتهاد فى ربط مدلول الكلمة بسياقها حتى تكون ملائمة له على أحسن وجه من وجوه الملاءمة فان لكل كلمة فى العربية استعمالها اللغوى ومدلولها الحقيقى فاذا ما نقل القرآن الكريم استعمال الكلمة من المعانى التى هى مختصة بها الى معنى آخر اجتهد القرطبى فى بيان ملاءمة الكلمة لسياقها ولماذا آثرها القرآن على غيرها وكيف اقتضى كل مقام كلمة بعينها دون سواها .

من ذلك ما نقله عن النقاش أن كعب الأحبار لما أسلم كان يتعلم القرآن فأقرأه الذى كان يعلمه « فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم » فقال كعب : انى لأستنكر أن يكون هكذا ومر بهما رجل فقال كعب : كيف تقرأ هذه الآية ؟ فقال الرجل : « فاعلموا أن الله عزيز حكيم » فقال كعب : هكذا ينبغى .

هذا بالاضافة الى ما أدركه القرطبى من ايحاء لفظة « فاعلموا » مع ما توحى به كلمتا عزيز حكيم فى مقام الشدة والغلظة على من زل فى عقيدته بعدما جاءته الآيات والمعجزات الدالة على وجود الله ووحدانيته وصدق أنبيائه ورسله فيقول : « وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به ومن لم تبلغه دعوة الاسلام لا يكون كافرا بترك الشرائع »(١٤) .

---

(١٣) تفسير القرطبى ص ٧٨٦ .

(١٤) تفسير القرطبى ص ٨٣٢ .

وبفكر أدبى واع وفهم عقلى مستنير لأسرار الذكر الحكيم أدرك القرطبى أن القرآن الكريم مثل رائع للتهذيب والتقويم من أجل استقامة الناس على الجادة وأن طريقته فى التهذيب والتقويم هى النفاذ الى النفس الانسانية وقيادتها من داخلها وطريقة التلويح والايحاء طريقة لا تخطىء الوصول الى النفس وايقاظها والتأثير فيها حتى تستقيم على طريق الجادة وأن اللفظ القرآنى غنى بالايحاءات التى تهذب النفوس الانسانية وتقوم الطباع البشرية • من ذلك ما يقوله فى تفسير لفظتى « كسبت واكتسبت » حين يعرض لقول الله عز وجل : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » اذ يرى فيهما ايحاءات وظلالا نفسية يفصح عنها بقوله : « يريد كسبت من الحسنات واكتسبت من السيئات ذلك أن الحسنات مما تكتسب دون تكلف اذا كاسبها على جادة أمر الله تعالى ورسم شرعه ، والسيئات تكتسب بعناء المبالغة اذ كاسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطاه اليها فيحسن فى الآية مجىء التصريفين احرازا لهذا المعنى(١٥) •

كما يفصح عن سر الاتيان بحرف الجر « اللام » الذى يفيد الملك فى الكسب الذى فسر بالحسنات ، وحرف الجر « على » الذى يفيد الاستعلاء فى الاكتساب المفسر بارتكاب السيئات بقوله «وجاءت العبارة فى الحسنات بـ « لها » من حيث هى مما يفرح المرء بكسبه ويسر بها فتضاف الى ملكه ، وجاءت فى السيئات بـ « عليها » من حيث ان السيئات هى أثقال وأوزار ومتحملات صعبة ، وهذا كما

---

(١٥) تفسير القرطبى ص ١٢٣٩ •

تقول : لى مال وعلى دين ــ وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام(١٦) .

وبهذا الفكر الواعى والعقلية المستنيرة الفاهمة والفطنة الأدبية الراقية أدرك القرطبى عند تفسيره لقول الله عزوجل : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » أدرك ما توحى به شهادة العلماء مقترنة بشهادة الله وملائكته على وحدانية الله سبحانه وتعالى أدرك فضل العلم وشرف العلماء اذ يقول :«فلو كان أحد أشرف من العلماء لقرنه باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء » ويزيد هذا المعنى تأكيدا أن الله قال فى شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم « وقل رب زدنى علما » فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه،كما أمره أن يستزيده من العلم »(١٧) .

كذلك استرحى القرطبى ــ رحمة الله عليه ــ من قول الله عز وجل « الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك » تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ويقول لأننا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرا مطلقا فى قوله تعالى : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » وحين أمرنا بالاقتداء بابراهيم ــ عليه السلام ــ استثنى بعض أفعاله »(١٨) .

---

(١٦) تفسير القرطبى ص ١٢٣٩ .

(١٧) المصدر نفسه ص ١٢٨٣ .

(١٨) المصدر نفسه ص ٦٥٣٦ .

كما استوحى من كلمة « رواسى » فى قول الله تعالى « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » أن على الانسان أن يأخذ بالأسباب ولا يركن الى التواكل اذ يقول : « وفى هذه الآية دليل على استعمال الأسباب فقد كان الله قادرا على سكون الأرض دون الجبال »(١٩) .

ومن ذلك أيضا ما توحى به كلمة « اقترب » فى قول الله تعالى « اقترب للناس حسابهم » من الاسراع بالتوبة والاقلاع عن الذنوب والعمل ليوم الحساب حيث يقول : « ومن عظم اقتراب الساعة قصر أمله وطابت نفسه بالتوبة ولم يركن الى الدنيا فكأن ما كان لم يكن اذا ذهب ، وكل آت قريب ، والموت لا محالة آت ، وموت كل انسان قيام ساعته ، والقيامة أيضا قريبة بالاضافة الى ما مضى من الزمان فما بقى من الدنيا أقل مما مضى »(٢٠) .

وللفظتى « تضرعا وخفية » ايحاءات وظلال نفسية يستشفها القرطبى ويفصح عنها حين يعرض لقول الله عز وجل : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » اذ يقول : « قرن جل وعز بالأمر بالدعاء والتعبد له صفات تحسن معه ، وهى الخشوع والاستكانة والتضرع خفية أى سرا فى النفس ليبعدها عن الرياء ، وبذلك أثنى على نبيه زكريا عليه السلام اذ قال مخبرا عنه « اذ نادى ربه نداء خفيا » والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرا من الجهر »(٢١) .

---

(١٩) تفسير القرطبى ص ٣٧٠٧ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ٤٣٠٧ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٢٦٥٩ .

كما أدرك ما توحى به اللفظتان « خـوفا وطمعا » فى قـوله تعالى « وادعوه خـوفا وطمعا » من اضـطراب النفس الانسـانية وما ينتابها من حالتى القنوط من رحمة الله والرجا فى عفوه تعـالى فيقول : « أمر بأن يكون الانسان فى حالة ترقب وتخوف وتأميل لله عزوجل حتى يكون الرجاء والخوف للانسان كالجناحين للطائر يحملانه فى طريق استقامته،قال تعالى : « نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العـذاب الأليم » فرجى وخوف • ولهـذا فان على الانسان أن يدعو خوفا من عقابه وطمعا فى ثوابه »(٢٢) •

وفى قوله سبحانه « وأوحينا الى موسى أن أسر بعبـادى » يستوحى من اضافة « عباد » الى ضمير المولى عز وجل نجاة موسى ومن معه • وذلك قوله : « وفى ضـمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم من عدوهم »(٢٣) وقد وقف عند كلمة « المضطر » فى الآية الكريمة « أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » فاسـتوحى منها معنى الاخلاص الذى يترتب عليه اجابة الدعاء وكشف الضر ورفع البلاء اذ يقول : « ضمن الله تعالى اجابة المضطر اذا دعاه والسـبب فى ذلك أن الضرورة اليه باللجاء ينشأ عن الاخلاص وقطع القـلب عما سواه ، وللاخلاص عنده موقع وذمة وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ، قال تعالى فى المشركين : « فلما نجاهم الى البـر اذا هم يشركون فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع اخلاصهم مع علمـه أنهم يعودون الى شركهم وكفرهم »(٢٤) •

---

(٢٢) تفسير القرطبى ص ٢٦٦٣ •

(٢٣) المصدر نفسه ص ٤٨١٦ •

(٢٤) المصدر السابق ص ٤٩٣٩ •

وهكذا يقف القرطبى عند هذا اللون الأدبى من ايحاءات الألفاظ ليكشف أن للفظ اشاراته الخفية التى هى جزء من المعنى القائم به • ولا غرو فقد كان القرطبى مرهف الحس دقيق الشعور نافذا بطبيعته الأدبية الى ما وراء ظاهر النص مدركا لما توحى به الأساليب من المعانى البعيدة عن متن ألفاظها والتى لا يتنبه اليها الا القليل من ذوى الفطنة •

٢ ــ منزلة عنصر المعنى فى التعبير القرآنى :

الحق أن القرطبى قد أبان عن قيمة هذا العنصر وأفصح عن أهميته حيث عاش مع التعبير القرآنى الذى هو ذروة البلاغة والاعجاز بفكره وقلبه وحسه ووجدانه غائصا فى بحار آياته ليستخرج لآلىء أسراره وكنوز مرماه وأهدافه ، ثم يعود وقد كشف لنا عن معانى نفسية استشفها من فيضه الغزير • فمثلا يقول فى قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » : « الحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه اذ له الأسماء الحسنى والصفات العلا »(٢٥) •

ويقف القرطبى عند كل لفظة وردت فى الآية الكريمة فيأتى على كل معنى ورد عن العرب فيها فارقا بين معنى اللفظة وما عسى أن يكون لها رديف أو شبيه وآراء أهل الأدب واللغة فيها وفيما اشتقت منه اذ يقول : « والحمد نقيض الذم والتحميد أبلغ من الحمد والمحمود الذى يحمده الناس والمحمد الذى كثرت خصاله المحمودة قال الشاعر : « الى الماجد القوم الجواد المحمد » وبذلك سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

---

(٢٥) تفسير القرطبى ص ١١٦ •

قال الشـــاعر :

فشق له من اسـمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد(٢٦)

ويذكر أن من معانى الحمد الرضا ومنه قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » وقال عليه السلام « أحمد اليكم غسل الاحليل » أى أرضاه لكم »(٢٧) .

كما يأخذ فى بيان المعنى وشبهه فيما تحتمله لفظة الحمد وآراء أهل اللغة فى ذلك : « ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبـرد الى أن الحمد والشكر بمعنىواحد سواء ... وقال بعض العلمـاء : ان الشكر أعم من الحمد لأنه باللسان وبالجوارح والقلب ، والحمد انما يكون باللسان خاصة » .

ولا يرتضى القرطبى هذين الرأيين اذ يقول : « وليس بمرضى والصحيح ــ عنده ــ أن الحمد أعم لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ولأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد .

ويستدل على ذلك بما روى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : الحمد لله كلمة كل شاكر وان آدم عليه السـلام حين عطس قال : الحمد لله . وقال الله لنوح عليه السـلام : « فقل الحمـد لله الذى نجانا من القوم الظـالمين » ، وقال ابراهيم عليه السـلام : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » وقال فى قصـة داود وسليمان ــ عليهما السلام ــ : « وقالا الحمد لله الذى

---

(٢٦) المصـدر نفسـه .

(٢٧) المصدر نفسه ص ١١٧ .

فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » ، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا » ، وقال أهل الجنة : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » • وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » • فهى كلمة كل شاكر (٢٨) •

ويخطىء الطبرى والمبرد فيما ذهبا اليه آنفا من أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء•اذ يقول مشيرا الى الفرق بين المعنيين : « قلت : الصحيح أن الحمد ثناء على المدوح بصفاته من غير سبق احسان والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الاحسان وعلى هذا الحد قال علماؤنا » (٢٩) •

ويستشف من الآية معنى يتولد منه معنى آخر وهو أن الحمد قد خص الله به نفسه وحيث ان الأمر كذلك فلايجوز لأحد من المخلوقين أن يحمد نفسه•وفى ذلك يقول القرطبى : « أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه وافتتح كتابه بحمده ولم يأذن فى ذلك لغيره بل نهاهم عن ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيه فقال : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقال عليه الصلاة والسلام « احثوا فى وجوه المداحين التراب » رواه المقداد • فمعنى الحمد لله رب العالمين : سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدنى أحد من العالمين وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن لعلة وحمد الخلق مشوب بالعلل فيستقبح من المخلوق الذى لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار »(٣٠) •

---

(٢٨) تفسير القرطبى ص ١١٦ •

(٢٩) المصدر نفسه ص ١١٧ •

(٣٠) تفسير القرطبى ص ١١٧ •

كما يشير الى تولد المعانى عن طريق آخر فى هذه الآية فيما نقله عن الطبرى فى معنى الحمد حيث يقول : « الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : قولوا الحمد لله وعلى هذا يجىء قولوا اياك ، وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه كما قال الشاعر :

وأعلم أننى سأكون رمسا ... اذا سار النواعج لا يسير
فقال السائلون لمن حفرتم ... فقال القائلون لهم وزير

أى المحفور له وزير فحذف لدلالة ظاهر الكلام عليه وهذا كثير »(٣١) .

ويعرض لقول الله تعالى « رب العالمين » فيذكر جميع المعانى التى تضمنتها كلمة « رب » ويقول : قوله تعالى « رب العالمين » أى مالكهم وكل من ملك شيئا فهو ربه فالرب : المالك ، والرب السيد ومنه قوله تعالى « اذكرنى عند ربك » وفى الحديث « أن تلد الأمة ربتها » أى سيدتها ، والرب المصلح والمدبر والجابر والقائم ومنه سمى « الربانيون » لقيامهم بالكتب . وفى الحديث : « هل لك من نعمة تربها عليه » أى تقوم بها وتصلحها .. وهذا الاسم هو اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الداعين به وتأمل ذلك فى القرآن كما فى آخر آل عمران وسورة ابراهيم وغيرهما ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب مع ما يتضمنه من العطف والرحمة والافتقار فى كل حال .. وهو مشتق من التربية فالله سبحانه وتعالى مدبر

---

(٣١) تفسير القرطبى ص ١١٨ والنواعج والناعجات من الابل : البيض الكريمة ، لسان العرب مادة نعج .

لخلقه ومربيهم ومنه قوله تعالى : « وربائبكم اللاتى فى حجوركم » فسمى بنت الزوجة ربيبة لتربية الزوج لها(٣٢) .

ويستطرد القرطبى فيأتى على كل المعانى لكلمة «رب» وما يختص به رب العالمين وما هو مشترك فى المعنى بين الله وبين عباده فيقول : « والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال فى غيره الا بالاضافة وقد قالوه فى الجاهلية للملك قال الحارث بن حلزة :

وهو الأرب والشهيد على يو م الحيارين والبلاء بلاء

كما أطلقوه على أصنامهم ومنه قول الشاعر :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم يقول : « ومتى أدخلت الألف واللام على « رب » اختص الله تعالى به لأنها للعهد وان حذفتا منه صار مشتركا بين الله وبين عباده فيقال : الله رب العباد ، وزيد رب الدار . فالله سبحانه رب الأرباب يملك المالك والمملوك وهو خالق ذلك ورازقه وكل رب سواه غير خالق ولا رازق وكل مملوك فمملك بعد أن لم يكن ومنتزع ذلك من يده وانما يملك شيئا دون شيء وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعانى فهذا الفرق بين صفة الخالق والمخلوقين »(٣٣) .

أما عن كلمة « العالمين » فيقول : « اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافا كثيرا — فقال قتادة : العالمون جمع عالم وهو كل

---

(٣٢) تفسير القرطبى ص ١١٩ .

(٣٣) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

موجود سوى الله تعالى ولا واحد له من لفظه مثل رهط وقوم — وقال ابن عباس : العالمون الجن والانس ، دليله قوله تعالى «ليكون للعالمين نذيرا » ولم يكن نذيرا للبهائم ، وقال الفراء وأبو عبيدة : العالم عبارة عمن يعقل وهم أربعة أمم : الانس والجن ، والملائكة ، والشياطين ولا يقال لبهائم عالم لأن هذا الجمع انما هو جمع من يعقل خاصة .

غير أن القرطبى يميل الى قول قتادة فيقول : « قلت : والقول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى «قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة والعلم والعلامة والمعلم ما دل على الشىء فالعالم دال على أن له خالقا ومدبرا وهذا واضح »(٣٤) .

ويسفر القرطبى عن المعانى النفسية التى تضمنتها آية البقرة فى شأن الكافرين وهى قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » يقول القرطبى : « بين الله سبحانه وتعالى المانع لهم من الايمان بقوله « ختم الله » والختم مصدر ختمت الشىء ختما فهو مختوم ومعناه التغطية على الشىء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شىء ومنه : ختم الكتاب والباب وما أشبه ذلك حتى لا يوصل الى ما فيه ولا يوضع فيه غير ما فيه ».

ويبين أن الختم يكون محسوسا كما مثل بختم الكتاب والباب وما أشبههما من الأشياء المادية المحسوسة التى تدرك بالحواس ، ويكون معنويا ومنه ما فى الآية التى معنا اذ يقول : « والختم يكون محسوسا كما بينا ، ومعنى كما فى هذه الآية » .

---

(٣٤) تفسير القرطبى ص ١٢٠ ، ١٢١ .

ويمضى ليبين معنى الختم على القلوب وعلى السمع وعلى الأبصار فيقول : « فالختم على القلوب عدم الوعى عن مخاطبات الحق سبحانه والفكر فى آياته ، والختم على السمع معناه : عدم فهمهم للقرآن اذا تلى عليهم ، وعلى الأبصار : عدم هدايتها للنظر فى مخلوقاته وعجائب مصنوعاته » .

ويرد بشدة قول من قال : ان معنى الختم والطبع والغشاوة هو التسمية والحكم والاخبار بأنهم لا يؤمنون لا الفعل . يرد هذا القول بقوله : « قلنا هذا فاسد لأن حقيقة الختم والطبع انما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا مختوما ، ولا يجوز أن تكون حقيقة التسمية والحكم . ألا ترى أنه اذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه كان حقيقته أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعا ومختوما لا التسمية والحكم ؟ هذا ما لا خلاف فيه بين أهل اللغة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال تعالى : « بل طبع الله عليها بكفرهم » . وأجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبى — عليه الصلاة والسلام — والملائكة والمؤمنين ممتنع فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم مختوم عليها ، وأنهم فى ضلال لا يؤمنون ويحكمون عليهم بذلك فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم وانما هو معنى يخلقه الله فى

---

(٣٥) تفسير القرطبى ص ١٦١ وما بعدها .

القلب يمنع من الايمان به • دليله قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به » • وقال : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » أى لئلا يفقهوه »(٣٦) •

ويستنبط من الآية ــ بثاقب فكره وصائب عقله ــ دليلا على أن الله خالق الخير والشر والنافع والضار ، ويسفه رأى القدرية القائلين بخلق ايمانهم وهداهم فيقول : « وفى هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال والكفر والايمان فاعتبروا أيها السامعون وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق ايمانهم وهداهم فان الختم هو الطبع فمن أين لهم الايمان • ولو جهدوا وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة فمتى يهتدون ؟ أو من يهديهم من بعد الله اذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم « ومن يضلل الله فما له من هاد » وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن أضله وخذله اذ لم يمنعه حقا وجب له فتزول صفة العدل وانما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم »(٣٧) •

ويكشف القرطبى عن المعنى الذى يستهدفه قوله تعالى : « واذا استسقى موسى لقومه » فيقول : « السين فى استسقى سين السؤال مثل استعلم واستخبر واستنصر ونحو ذلك أى طلب وسأل السقى لقومه والعرب تقول : سقيته وأسقيته لغتان بمعنى •

قال الشاعر :

سقى قومى بنى مجد وأسقى نميرا والقبائل من هلال

---

(٣٦) تفسير القرطبى ص ١٦٢ وما بعدها •

(٣٧) تفسير القرطبى ص ١٦٢ •

ويتابع القرطبى كلامه فيقول :

« والاستسقاء انمـا يكون عند عـدم الماء وحبس القطر ـ أى الماء ـ واذا كان كذلك فالحكم حينئذ اظهار العبودية والفقر والمسكنة والذلة مع التوبة النصوح »(٣٨) .

ويمضى القرطبى مع آية الصيام وهى قوله تعالى « أحـل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ... الآية » فيستجلى بواطنها ويقصد الى مفهوم المخالفة فيها مستنبطا منها أدلة تتعلق بأمور فقهيـة فى غاية الأهمية فيقول : « لما بين سبحانه محظورات الصيام وهى الأكل والشرب والجماع ولم يذكر المباشرة التى هى اتصال البشرة بالبشرة كالقبلة والجسة وغيرها ، دل ذلك على صحة صوم من قبل وباشر،لأن فحوى الكلام انما يدل على تحريم ما أباحه الليل وهو الأشياء الثلاثة ولا دلالة فيه على غـيرها بل هو موقوف على الدليل ، ولذلك شـاع الاختـلاف فيه » .

وتغلب عليه النزعة الفقهية والتى تميز بها تفسيره حيث سـماه « الجامع لأحكام القرآن » فيسـتطرد فى ذكر أقوال الفقهاء فيمـا يتعلق بقبلة الصائم ومباشرته وحكم الصوم فى هذه الحالة بما ورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقوال الصـحابة وتابعيهم فى هذا الشـأن(٣٩) .

---

(٣٨) تفسير القرطبى ص ٣٥٦ .

(٣٩) انظر تلك الأحكام وغيرها وأدلتها واقوال السلف فيها من ص ٦٨٩ الى ص ٧١٢ طبعة دار الشعب .

ويناقش سؤال ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ ربه عن كيفية احياء الموتى وهو قوله فى سورة البقرة : « رب أرنى كيف تحيى الموتى » وهل هذا السؤال صدر من ابراهيم عن شك أم لا ؟ فينفى بشدة أن سؤال ابراهيم نبع عن شك فى قدرة الله ويقول : « لم يكن ابراهيم عليه السلام شاكا فى احياء الله الموتى قط ، وانما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة الى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا قال عليه السلام : « ليس الخبر كالمعاينة » .

ويؤكد ذلك بما قاله الأخفش : « لم يرد ابراهيم رؤية القلب وانما أراد رؤية العين » وبما قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والربيع من أنه ــ أى ابراهيم ــ سأل ليزداد يقينا الى يقينه .

ويؤول ما ذكر عن عطاء بن رباح أنه قال : « دخل قلب ابراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال : « رب أرنى كيف تحيى الموتى » وذكر ــ أى عطاء ــ حديث أبى هريرة الذى أخرجه الشيخان البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «نحن أحق بالشك من ابراهيم اذ قال رب ارنى كيف تحيى الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » ويرحم الله لوطا فقد كان يأوى الى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى» يقول القرطبى : « وأما قول عطاء : ودخل فى قلب ابراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فمعناه من حيث المعاينة ــ على ما تقدم ــ وأما قول النبى صلى الله عليه وسلم : «نحن أحق بالشك من ابراهيم» فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك ، فابراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك . فالحديث مبنى على نفى الشك عن ابراهيم ، والذى روى فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« ذلك محض الايمان » انما هو فى الخواطر التى لا تثبت، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر وذلك هو المنفى عن الخليل عليه السلام، واحياء الموتى انما يثبت بالسمع وقد كان ابراهيم عليه السلام أعلم به ، يدلك على ذلك قوله «ربى الذى يحيى ويميت» فالشك يبعد على من تثبت قدمه فى الايمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة والأنبياء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التى فيها رذيلة اجماعا . واذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تجد شكا ، وذلك أن الاستفهام بكيف انما هو سؤال عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول ، نحو قولك : كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا . ومتى قلت : كيف ثوبك ؟ وكيف زيد ؟ فانما السؤال عن حالة من أحواله . وقد تكون « كيف » خبرا عن شىء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخارى : كيف كان بدء الوحى . و « وكيف » فى هذه الآية انما هى استفهام عن هيئة الاحياء والإحياء متقرر، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شىء قد يعبرون عن انكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشىء يعلم أنها لا تصح ، فيلزم من ذلك أن الشىء فى نفسه لا يصح ، مثال ذلك أن يقول مدع أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذب له : أرنى كيف ترفعه ! فهذه طريقة مجاز فى العبارة ومعناها تسليم جدلى كأنه يقول : افرض أنك ترفعه ، فأرنى كيف ترفعه ؟ فلما كانت عبادة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازى خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له : «أو لم تؤمن قال بلى» فكمل الأمر وتخلص من كل شك ، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة . من جهة أخرى فانه لا يجوز على الأنبياء صلوات الله

عليهم مثل هذا الشك فانه كفر والأنبياء متفقون على الايمان بالبعث، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : «ان عبادى ليس لك عليهم سلطان» وقال اللعين الا عبادك منهم المخلصين ، واذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم ؟ وانما سأل ابراهيم أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وايصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فأراد أن يترقى من علم اليقين الى عين اليقين فقوله : « أرنى كيف » طلب مشاهدة الكيفية(٤٠) .

وهكذا يمضى القرطبى مبينا قيمة عنصر المعنى فى التصوير القرآنى من خلال القرآن الكريم التى هى الأدب فى قمته بل هى الأدب بعينه ويعرض لمعنى آية سورة آل عمران : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » فيقول فى المسألة الثامنة : « جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالايمان به والتصديق بما فيه قسمين : محكما ومتشابها ... فأعلم — سبحانه — أن المتشابه من الكتاب قد استأثر الله بعلمه فلا يعلم تأويله أحد غيره ، ثم أثنى الله عز وجل على الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنا به . ولولا صحة الايمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه ، ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التام فى هذه الآية انما هو عند قوله تعالى « وما يعلم تأويله الا الله » وأن ما بعده استئناف كلام آخر » . وينسب هذا الرأى

---

(٤٠) تفسير القرطبى ص ١١٠٦ ، ١١٠٧ .

الى ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وأبى بن كعب وعائشة وعروة ابن الزبير وعمر بن عبد العزيز وهو مذهب الكسائى والأخفش والفراء وأبى عبيد • وعلى هذا فـ « الراسخون » ابتداء كلام مقطوع مما قبله وأن الكلام تم عند قوله تعالى : « الا الله » • غير أنه ينقل عن مجاهد أنه عطف « الراسخين » على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه فقال : معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنا به وزعم أن موضع « يقولون » نصب على الحال •

ولكن القرطبى يرد هذا القول ويقول : « وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ولاتذكر حالا الا مع ظهور الفعل فاذا لم يظهر فعل فلا يكون حالا ، ولو جاز ذلك لجاز أن يقول : عبد الله راكبا بمعنى أقبل عبد الله راكبا وانما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله • عبد الله يتكلم يصلح بين الناس » فكان « يصلح » حالا له كقول الشاعر :

أرسلت فيها قطما لكالكا يقصر يمشى ويطول باركا(٤١)

أى يقصر ماشيا • فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده • وأيضا فانه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه ثم يكون له فى ذلك

---

(٤١) القطم : الغضبان وفحل قطم صؤول ، والكالك : الجمل الضخم الكثير اللحم ، يصف الشاعر جملا باكتناز لحمه ، وانه صؤول يقصر اذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض فاذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه فهو باركا أطول منه قائما •

شريك • ألا ترى قوله عز وجل : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله » •

وقوله : « لا يجليها لوقتها الا هو » فكأن هذا كله مما استأثر الله سبحانه بعلمه لا يشركه فيه غيره • وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وما يعلم تأويله الا الله » • ولو كانت الواو فى قوله «والراسخون» للنسق لم يكن لقوله : « كل من عند ربنا » فائدة • والله أعلم(٤٢) •

ثم يمضى مبينا معنى الرسوخ لغويا وحقيقة الراسخ والحكمة من وجود بعض المتشابه فى القرآن الكريم فيقول : « والرسوخ معناه الثبوت فى الشىء وكل ثابت راسخ • وأصله فى الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض • قال الشاعر :

لقد رسخت فى الصدر منى مودة لليلى أبت آياتها أن تنيرا

ورسخ الايمان فى قلب فلان يرسخ رسوخا — ورسخ ورضخ ورصن ورسب كله ثبت فيه • وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الراسخين فى العلم فقال : « هو من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه » • فان قيل : كيف كان فى القرآن متشابه والله يقول : «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » فكيف لم يجعل كله واضحا ؟ قيل له الحكمة فى ذلك — والله أعلم — أن يظهر فضل العلماء لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضل بعضهم على بعض وهكذا يفعل من يصنف تصنيفا يجعل بعضه واضحا وبعضه مشكلا ويترك للجثوة موضعا لأن ما هان وجوده قل بهاؤه — والله أعلم »(٤٣) •

---

(٤٢) انظر تفسير القرطبى ص ١٢٥٨ وما بعدها •

(٤٣) تفسير القرطبى ص ١٢٦١ •

والقرطبى يرى أن فى اختلاف القراءات ابرازا ووضوحا للمعنى ، ولذلك فالقراءة المفضلة عنده هى التى تحمل معنى قويا يخدم التفسير القرآنى ، ومن هنا فاننا نراه يستحسن قراءة أبى بكر وابن عامر فى قوله تعالى : « والله أعلم بما وضعت » بضم التاء ويقول : « على قراءة من قرأ وضعت بضم التاء من جملة كلامها والكلام متصل لأنها نادته فى أول الكلام فى قولها « رب انى وضعتها أنثى » .

ويرى أن القراة على هذا الوجه فيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له سبحانه وتعالى فهى لم تقله على طريق الاخبار لأن علم الله فى كل شىء قد تقرر فى نفس المؤمن وانما قالته على طريقة التعظيم والتنزيه لله ، ولذلك فهو يفضل تلك القراءة على قراءة الجمهور « وضعت » بسكون التاء ويرى أن فيها تقديما من تأخير وهى جملة اعتراضية من كلام الله عز وجل وليس من كلام أم مريم وحقه أن يكون مؤخرا بعد قولها « وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »(٤٤) .

وعنده أن القراءة التى لا تحتاج الى تأويل أولى وأنفع لأنها تحفظ للاسلوب القرآنى جماله وقوة معناه . أما اذا أضاعت القراءة من أسلوب القرآن بهاءه واحكام معناه فانه يرفضها ويأباها ويؤثر غيرها مما يحفظ على القرآن جماله وروعة بيانه ، ولهذا فهو يفضل قراءة الجمهور على قراءة حمزة فى قوله تعالى من سورة النور « ولا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض » لأن قراءة الجمهور

---

(٤٤) انظر تفسير القرطبى ص ١٣٠٩ .

لا تحتاج الى تأويل أما قـراءة حمزة فلابد لها من تأويل على حـد قـوله : « وقراءة العامة « تحسبن » بالتـاء خطابا تسـلية للنبى صلى الله عليه وسلم ووعد بالنصرة » ثم يقول : « وقرأ ابن عـامر وحمزة « لا يحسبن » بالياء بمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين فى الأرض لأن الحسبان يتعدى الى مفعولين، وهذا قـول الزجاج • وقال الفـراء وأبو على : يجـوز أن يكون الفعـل للنبى صلى الله عليه وسلم أى لا يحسبن محمد الذين كفروا معجزين فى الأرض •

وعلى هذا فالفـاعل هو محمد صـلى الله عليه وسـلم ، والذين كفروا مفعول أول ، ومعجزين مفعول ثان •

أما على القول الأول — وهو ما قدره الزجاج — فالذين كفروا فاعل وأنفسهم مفعول أول وهو محذوف مراد ومعجزين مفعول ثان، وهذا التأويل كله بسبب قراءة حمزة « لا يحسبن » بالياء ، ولولا هذا التأويل لاختل الأسلوب • ومن هنا فقد رأيناه ينقل عن النحاس قوله: « وما علمت أحـدا من أهل العربية بصريا ولا كوفيا الا وهو يخطىء قراءة حمزة بل ان منهم من يقول هى لحن لأنه لم يأت الا بمفعـول واحـد ليحسبن »(٤٥) •

كذلك يضعف قراءة حمزة « بمصرخى » بكسر اليـاء لمخـالفة الأفصح فى اللسان العربى وذلك لثقل الكسرة على الياء ويستحسن قراءة الجمهـور بفتح الياء اذ الأصـل بمصرخين لى فحذفت اللام تخفيفا والنون للاضافة وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الاضـافة فمن

---

(٤٥) تفسير القرطبى ص ٤٦٩٣ بتصرف •

فتح الياء فلأجل التضعيف تفاديا من الثقل ولأن الاضافة اذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل هواى وعصاى فان تحرك ما قبلها جاز الفتح والاسكان ، وينقل عن الفراء والزجاج أنهما ضعفا قراءة حمزة التى تقول بكسر الياء ويقول : « وقال الفراء : قراءة حمزة وهم منه ، وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها الا الضعف.

ويستطرد القرطبى — كعادته — فى النقل عن الآخرين مما يدل على أنه كان كثير المطالعات طويل المراجعات فارسا فى علوم العربية نحوها وصرفها وأصولها وأدبها فاهما لأسرارها واقفا على دقائقها محيطا بلغات قبائلها ولهجات أهلها اذ يقول : « وهذه لغة بنى يربوع حيث يزيدون على ياء الاضافة ياء ، وينقل عن القشيرى قولا وجيها يدفع به ما قاله الزجاج والفراء عن حمزة فيقول : « وعن القشيرى والذى يغنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو ردىء ، أو قبيح بل هو فى القرآن فصيح وفيه ما هو أفصح منه فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح »(٤٦) .

أما اذا أعطى اختلاف القراءات معنى جديدا مغايرا — بمعنى أن الكلمة القرآنية على قراءة التشديد — مثلا — تعطى معنى جديدا أو اضافة للمعنى ان هى قرئت مخففة — فانه يستحسن كليهما ولا يرجح احدى القراءتين على الأخرى مادامت القراءة هذه أو تلك تعطى معنى جديدا يضفى على القرآن رواءه وحلاوته ويزيد من بهائه

---

(٤٦) تفسير القرطبى ص ٣٥٨٦ .

ورونقه أو يكون المعنى على القراءتين واحدا كما فى تفسيره لقول الله عز وجل فى سورة المرسلات : « فقدرنا فنعم القادرون » حيث يقول : « قرأ نافع بالتشديد وخفف الباقون وهما لغتان بمعنى قدرنا مشددة كما تقول : قدرت كذا وقدرته ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الهلال : « اذا غم عليكم فأقدروا له » أى قدروا له المسير والمنازل •

ويتابع القرطبى حديثه فيقول : « وذكر تشديدها عن على — رضى الله عنه — وتخفيفها • ولا يبعد أن يكون المعنى فى التشديد والتخفيف واحدا لأن العرب تقول : قدر عليه الموت وقدر قال تعالى: « نحن قدرنا بينكم الموت » قرىء بالتخفيف والتشديد ، وقدر عليه رزقه وقدر بالتخفيف والتشديد أيضا •

ثم يقول : « واحتج الذين خففوا فقالوا لو كانت مشددة لكانت فنعم المقدرون فهو من التقدير أى فقدرنا الشقى والسعيد فنعم المقدرون ، وعن عكرمة « فقدرنا » مخففة من القدرة ، وهو اختيار أبى عبيد وأبى حاتم والكسائى لقوله « فنعم القادرون » •

وان كان القرطبى يميل الى قراءة التخفيف حيث يقول : « قلت هو صحيح فان عكرمة هو الذى قرأ فقدرنا مخففا ومعناه فملكنا فنعم المالكون الا أنه عاد يسوى بين القراءتين حيث أفادت الكلمتان معنيين متغايرين لأنه على قراءة التخفيف يكون المعنى : فملكنا فنعم المالكون • وأما على قراءة التشديد فيكون المعنى : قدرنا وقت

الولادة وأحوال النطفة في التنقيل من حالة الى حالة حتى صارت بشرا سويا أو قدرنا الشقي والسعيد أو الطويل والقصير(٤٧) .

٣ ــ نمو الفكرة وتصاعدها في تفسير القرطبي :

وبنظرته الفكريه الفاحصة وبصيرته الادبيه الواعية مصاحبا ذوقه الأدبي الراقي نظر القرطبي الى تطور التسلسل الأدبي فتحدث في تفسيره عن نمو الفكرة وتصاعدها والمعاني التي يتولد بعضها من بعض ويهيىء بعضها بعض حتى كان السابق منها مهاد للاحق وتوطئة له مطبقا ذلك على آي القرآن الكريم .

ففي موقف مدافعة لوط قومه حينما جاءوا يسرعون اليه من أجل ايقاع الفاحشة بضيفه وهم الملائكة رسل الله الى لوط ، اذ كان من عادة قومه اتيان الرجال شهوة من دون النساء فقال لهم : « يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي » يقول القرطبي : « انما كان هذا الكلام مدافعة ولم يرد امضاءه ، كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : « الخنزير أحل لك من هذا » ــ فهو لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته وانما قال هذا لينصرفوا ».

ويتابع القرطبي قوله فيقول : « وليس ألف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح الرجال طهارة بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، وان لم يكن تفضيلا . وهذا جائز شائع في كلام العرب ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه ، وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : اعل هبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « قل الله أعلى وأجل » وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا »(٤٨) .

---

(٤٧) انظر تفسير القرطبي ص ٦٩٥١ .

(٤٨) انظر تفسير القرطبي ص ٣٣٠٤ .

وفى مجال اعتراف النفس البشرية بأخطائها واقرارها بذنبها يدرك القرطبى أن القرآن يرتب الأفكار ترتيبا دقيقا بحيث تتتابع الأفكار وتتلاحق المعانى فكل فكرة ممهدة لتاليتها وبساط لها •

يقول فى قوله تعالى « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء » •

يقول القرطبى : « وهذا القول منها اظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته لأن اقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه فجمع الله تعالى ليوسف ــ لاظهار صدقه ــ الشهادة والاقرار حتى لا يخامر نفسا ظن ولا يخالطها شك »(٤٩) •

وكما وقف القرطبى يستنبط ما تحمله الآيات السابقة من أن الاقرار سيد الأدلة وأن اقرارها واعترافها كانا من أقوى الأدلة على صدق يوسف ــ عليه السلام ــ وتبرئته من كل سوء • يمضى كذلك فى استنباط آيات أخرى ليظهر أن ترتيب الأفكار فيها جاء على النمط الذى وردت فيه انما جاء على الصورة التى جاء عليها ليلائم طبيعة نفس يوسف عليه السلام ويتسق مع حالتها التى فى مكنتها أن تتحمل المسئولية كاملة والتى تستطيع أن تقوم بأعباء ادارة البلاد ماليا واقتصاديا دون كلل ولا ملل اذ يقول فى قوله تعالى : « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين » : « لما ثبت للملك براءته مما نسب اليه وتحقق فى القصة

---

(٤٩) تفسير القرطبى ص ٣٤٣٧ •

أمانته وفهم أيضا صبره وجلده عظمت منزلته عنده وتيقن حسن جلاله قال : « ائتونى به أستخلصه لنفسى » فانظر الى قول الملك أولا حين تحقق علمه « ائتونى » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « ائتونى به أستخلصه لنفسى »(٥٠) •

وفى قول يوسف عليه السلام للملك : « اجعلنى على خـزائن الأرض انى حفيظ عليـم » يقول القـرطبى : « ودلت الآية على أن يخطب ــ أى يطلب ــ الانسان عملا يكون له أهلا • فان قيل : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبـد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أعطيتها عن مسألة وكلت اليها وان أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » فالجواب من عدة وجوه :

الأول : ان يوسف عليه السلام انما طلب الولاية لأنه علـم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والاصلاح وتوصيل الفقراء الى حقوقهم، فرأى أن ذلك فرضـا متعينا عليه فانه لم يكن هنـاك أكفأ منه لتولى هـذا الأمر •

الثانى : أنه لم يقل انى حسيب كريم وان كان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه : الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم • ولم يقل : انى جميل مليح • انمـا قال : « انى حفيظ عليم » فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال•

الثالث : انما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسـه

---

(٥٠) المصدر نفسه ص ٣٤٣٩ •

وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى « فلا تزكوا أنفسكم » ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للانسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل »(٥١) .

وفى مجال تربية النفس النبوية نفس خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومجاهدتها والمثابرة على تلك المجاهدة يمضى القرطبى مع قول الله مخاطبا نبيه فى سورة المزمل : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ليلمح فى هذا القول ترتيب المعانى وتلاحقها وتصاعد الأفكار وتدرجها مع ما يتلاءم وطبيعة نفس النبى الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه وهذبه فكمل تهذيبه حيث تتوالى الأوامر وتتصاعد فى قوله تعالى له : « قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » . يقول القرطبى « هذا الكلام متصل بما فرض الله من قيام الليل أى سنلقى عليك افتراض صلاة الليل قولا ثقيلا يثقل حمله لأن الليل المنام ، فمن أمر بقيام أكثره لم يتهيأ له ذلك الا بحمل شديد على النفس ومجاهدة للشيطان فهو أمر يثقل على العبد لا يحمله الا قلب مؤيد بالتوفيق ونفس مزينة بالتوحيد »(٥٢) .

وترتيبا على ما تقدم فان القرطبى يرتب على هذا فضل صلاة الليل على صلاة النهار وأن الاستكثار من صلاة الليل بقراءة القرآن فيها ما أمكن أعظم للأجر وأجلب للثواب »(٥٣) .

---

(٥١) تفسير القرطبى ص ٣٤٤٥ وما بعدها .

(٥٢) تفسير القرطبى ص ٦٨٣٠ .

(٥٣) المصدر نفسه ص ٦٨٣١ .

كذلك فطن القرطبى — رحمه الله — الى قول الله عز وجل في آخر السورة « ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ... » الى قوله تعالى « فتاب عليكم » فلحظ أفكارا مرتبة ومعانى متصاعدة على أساس ما يعن للنفس من خواطر فجاء الكلام بعد مرتبا على وفق ما يعن للنفس من أفكار وخطرات وما يعترى النفوس من خلجات اذ نراه يقول : « وهذه الآية تفسير لقول الله تعالى : « قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه » وهى الناسخة لقيام الليل لأن معنى « فتاب عليكم » أى فعاد عليكم بالعفو يعنى تاب عليكم من فرض القيام اذ عجزتم فرجع لكم من ثقيل الى تخفيف ومن تعسير الى تيسير» (٥٤).

وهكذا مضى القرطبى فى كثير من تفسيره يعالج نمو الأفكار وترتيبها وتصاعدها وأثر ذلك فى ابراز ووضوح معانى آيات الذكر الحكيم مما يظهر فى جلاء اعجاز القرآن الكريم والوقوف على أسرار كتاب رب العالمين الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

٤ — الربط الفنى بين المعانى وتناسقها :

وللقرطبى فى هذا المجال جهد مشكور وعمل موفور فقد استطاع فى كثير من تفسيره أن يربط ربطا فنيا فى دقة واحكام بين المعنى السابق للآية ومعنى التى تليها وأول السورة اللاحقة وآخر سابقتها وبين أول السورة نفسها وآخرها . كل ذلك تناوله القرطبى وعالجه

---

(٥٤) انظر تفسيره ص ٦٨٤٤ وما بعدها .

من دقة واحكام من ذلك ما يقوله على سبيل المثال فى الربط بين سورة قريش وسورة الفيل : « ان هذه السورة متصلة بالتى قبلها فى المعنى وكأن الله يقول : أهلكت أصحاب الفيل لايلاف قريش أى لتأتلف قريش أو لتتفق أو لكى تأمن من قريش فتؤمن رحلتيها » .

ويؤيد هذا بما نقله عن الفراء قال : « هذه السورة متصلة بالسورة الأولى لأنه ــ سبحانه ــ ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ثم قال : « لايلاف قريش » أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك ان قريشا كانت تخرج فى تجارتها فلا يغار عليها ولا يقرب منها أحد فى الجاهلية اذ كان الناس يقولون هم أهل بيت الله جل وعز حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها ليبنى بها بيتا فى اليمن يحج الناس اليه فأهلكهم الله عز وجل فذكرهم نعمته أى فجعل الله ذلك لايلاف قريش أى ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم »(٥٥) .

كذلك استطاع القرطبى بمهارة فنية رائعة أن يربط بين أول سورة الممتحنة وآخرها فعندما يعرض لقول الله عز وجل « يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم » يقول : « ان الله ختم السورة بما بدأها به من ترك موالاة الكفار وهى خطاب لحاطب ابن أبى بلتعة وغيره »(٥٦) .

---

(٥٥) انظر القرطبى ص ٧١٩٠ وما بعدها .

(٥٦) المصدر نفسه ص ٦٥٥٥ . وكان قد ذكر القرطبى أن المراد بالمنادى فى قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء » فى أول السورة هو حاطب بن أبى بلتعة ــ ويعنى بقوله ــ لحاطب وغيره ، أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمطلوب من كل مسلم ألا يوالى قوما غضب الله عليهم ولا يتخذهم أولياء .

ومثل ذلك الربط الفنى للمعـــانى ما ذكره فى تفسير قـــول الله تعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم » من السورة نفسها حيث يقول فى ربط هذا القول الكريم بسابقه : « لمـــا نهى عن موالاة الكفار ذكر قصة ابراهيم عليه الســـلام وأن من سيرته التبـــرؤ من الكفـــار »(٥٧) .

ومن ذلك أيضـــا ما يقوله عند حـــديث القرآن عن الخـــراصين الكذابين الخادعين والجزاء الذى يلقونه « يوم هم على النار يفتنون » أى يحرقون ويقال لهم « ذوقوا فتنتكم ـــ أى عذابكم ـــ هذا الذى كنتم به تستعجلون » وحديثه عن المتقين والجزاء العظيم الذى أعده لهم حيث أعطاهم الكثير من الثـــواب والفرق بين الجـــزاءين . وهو ما تذكره سورة الذاريات حيث يقول الحق جل وعلا : «قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين يوم هم على النار يفتنون ذوقـــوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين ». يقول القرطبى فى الربط بين المعنيين : « لما ذكر الله عز وجل مـــآل الكفار ذكر مآل المؤمنـــين وفى ذلك بشرى وسرور للمؤمنين وحسرة على الكافرين »(٥٨) .

وفى ربط محكم فنى ودقيق ربط بين قوله تعالى « فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » وبين سابقه بقوله : « أكد الله عز وجل ما أخبرهم من البعث ومـــا خلق فى الســـماء من الرزق

---

(٥٧) تفسير القرطبى ص ٦٥٣٥ .
(٥٨) المصدر السابق ص ٦٢٠٥ .

وأقسم عليه بأنه « لحق » ثم أكده بقوله تعالى « مثل ما أنكم تنطقون » وخص النطق من بين سائر الحواس لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه كالذى يرى فى المرآة واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها والدوى والطنين فى الأذن والنطق سالم من كل ذلك(٥٩) .

كذلك ربط بين قوله تعالى « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم... الى قوله تعالى « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » وبين ما قبله فيقول : « ذكر قصة ابراهيم ــ وما بعدها ــ ليبين انه أهلك المكذب بآياته وهم المكذبون بالبعث الغافلون عن أمر الآخرة والذين قالوا لا حساب ولا عتاب استهزاء وشكا فى يوم القيامة »(٦٠) .

وقد رأيناه يربط بين معنى قول الله تعالى فى سورة النجم : « وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة(٦١) أهوى فغشاها ما غشى » .

وبين قوله تعالى : « هذا نذير من النذر الأولى » فيقول : « هذا الذى أخبرنا الله به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بها ما نزل بأولئك من النذر »(٦٢) .

---

(٥٩) المصدر نفسه ص ٦٢٢١ وما بعدها .

(٦٠) تفسير القرطبى ص ٦٢١٤ .

(٦١) المؤتفكة مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم أى انقلبت فصار عاليها سافلها .

(٦٢) تفسير القرطبى ص ٦٢٩١ . والنذر فى قول العرب بمعنى الانذار كالنكر بمعنى الانكار أى هذا انذار لكم .

وفى ربط قوى متين وبأسلوب أدبى رصين شرع القرطبى يربط بين قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله » وبين قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » فيقول : « لما أمر الله تعالى بالجهاد وانقتال على الحق — اذ ليس شىء من الشريعة الا ويجوز القتال عليه وعنه — حرض على الانفاق فى ذلك فدخل فى هذا الخبر المقاتل فى سبيل الله فانه يقرض به رجاء الثواب كما فعل عثمان — رضى الله عنه — فى جيش العسرة » .

ويذكر فى هذا المقام حادثة طريفة وقعت من أحد الصحابة حين سمع هذه الآية فأسرع يتصدق بما له ابتغاء ثواب الله عز وجل،فيروى بسنده الى ابن مسعود رضى الله عنه أنه لما نزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو الدحداح : يا رسول الله : أو ان الله تعالى يريد منا القرض ؟ قال : نعم قال : أرنى يدك فناوله ، قال : فانى أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة،ويؤيد ذلك بما روى عن زيد بن أسلم قال : « لما نزل « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو الدحداح : « فداك أبى وأمى يا رسول الله ! ان الله يستقرضنا وهو غنى عن القرض ؟ قال : « نعم يريد أن يدخلكم الجنة به » قال : فانى ان أقرضت ربى قرضا يضمن لى به ولصبيتى معى الجنة؟ قال : « نعم » قال : ناولنى يدك فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : انى لى حديقتين احداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله تعالى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعل احداهما لله والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك » قال : فأشهدك يا رسول الله أنى قد جعلت خيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة . قال : « اذا

يجزيك الله به الجنة » فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح وهى مع صبيانها فى الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هداك ربى سبل الرشـــاد ... الى سبيل الخـــير والسداد
ببنى من الحـــائط بالوداد ... فقد مضى قرضا الى التناد
أقرضته الله على اعتمادى ... بالطـــوع لا من ولا اتـــداد
الا رجاء الضعف فى المعاد ... فارتحلى بالنفس والأولاد
والبر لاشك فخـــير زاد ... قـــدمه المرء الى المعـــاد

قالت أم الدحداح : ربح بيعك : بارك الله لك فيمـــا اشتريت وأنشـــأت تقـــول :

بشرك الله بخـــير وفـــرح ... مثلك أدى ما لديه ونصـــح
قد متـــع الله عيـــالى ومنـــح ... بالعجوة السوداء والزهو الباح
والعبد يسعى وله ما قد كدح ... طول الليالى وعليه ما اجترح

ثم أقبلت على صبيانها .. تخرج ما فى أفواههم وتنفض ما فى أكمامهم حتى أفضت الى الحائط الآخر . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « كم من عذق رداح ودار فياح لأبى الدحداح »(٦٣) .

وفى قوله تعالى ــ خطابا للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ــ « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد(٦٤) انه أواب »

---

(٦٣) العذق بفتح فسكون : النخلة ، وبكسر فسكون : العرجون بما فيه من شماريخ ، ورداح : ثقيل والفياح بالتشديد والتخفيف : الرحب الواسع . (انظر لسان العرب) .

(٦٤) ذا الأيد : أى صاحب القوة فى العبادة فقد كان عليه السلام يصوم يوما ويفطر يوما وذلك أشد الصوم وأفضله وكان يصلى نصف الليل وكان لا يفر عند ملاقاة العدو كما كان قويا فى الدعاء الى الله تعالى . انظر تفسير القرطبى ص٥٦٠٢ .

رأيناه يربط بين أمره له ــ صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله عليه كفار مكة وبين أمره له بأن يذكر داود عليه السلام والنبيين قبله. بقوله : « لما ذكر أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم باهلاك القرون من قبلهم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه وسلاه بكل ما تقدم ذكره ثم أخذ فى ذكر داود وقصص الأنبياء ليتسلى بصبر من صبر منهم وليعلم أن له فى الآخرة أضعاف ما أعطيه داود وغيره من الأنبيـاء »(٦٥) .

وفى أسلوب أدبى رفيع مضى القرطبى يفرق بين معنى ما تضمنته آية آل عمران : « يأيها الذين آمنـوا اتقوا الله حق تقـاته » وبين معنى ما تضمنته آية التغابن : « فاتقوا الله ما استطعتم » على القول باحكام الآيتين ولا نسخ فى احداهما ــ فيتساءل : كيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حق تقاته والأمر باتقائه ما استطعنا ، والأمر باتقـائه حق تقاته ايجاب القرآن بغـير خصوص ولا وصل بشرط ؛ والأمـر باتقائه ما استطعنا أمر باتقائه موصولا بشرط ؟

ويجيب عن هذا التساؤل فيقول : «قوله فاتقوا الله ما استطعتم» بمعزل مما دل عليـه قوله تعالى : « اتقـوا الله حق تقاته » فقـوله « فاتقوا الله ما اسـتطعتم » يعنى : اتقوا الله أيهـا الناس وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فتتركوا الهجرة وأنتم مستطيعون لها .

---

(٦٥) تفسير القرطبى ص ٦٥٠١ .

وذلك أن الله جل ثناؤه كان قد عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها في قوله تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ٠٠ الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » ٠٠ ، فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا بالاقامة في دار الشرك فكذلك معنى قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » أي في الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام بأن تتركوا الهجرة بسبب أموالكم وأولادكم ٠ ومما يدل على صحته أن قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » جاء عقب قوله « يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم » ٠ ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك الى دار الاسلام بتثبيط أولادهم اياهم عن ذلك »(٦٦) ٠

أما قوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » فمعناه : أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر ٠ وعليه فان الأمر بالتقوى في التغابن انما هو بيان لما في آية آل عمران ويكون المعنى : « اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم » ولا نسخ في الآية لأن النسخ انما يكون عند عدم الجمع ، والجمع ممكن فهو أولى »(٦٧) ٠

---

(٦٦) تفسير القرطبي ص ٦٦٢٣ ، ٦٦٢٤ ٠

(٦٧) المصدر نفسه ص ١٣٩٩ ٠

وفى قوله تعالى « واذ ابتلى ابراهيم ربه » أخذ يربط ربطا فنيا بين هذه الآية مع سابقها وتاليها اذ يقول : « لما جرى ذكر الكعبة والقبلة اتصل ذلك بذكر ابراهيم عليه السلام وأنه الذى بنى البيت فكان من حق اليهود وهم من نسل ابراهيم ألا يرغبوا عن دينه »(٦٨)٠

٥ ــ اهتمام القرطبى بالأسلوب الأدبى فى القرآن الكريم :

اهتم القرطبى ببيان ما ينطوى عليه الأسلوب الأدبى من شدة الربط الفنى فى نظم الكلام وقوة العلاقات بين المعانى والألفاظ القرآنية ، وهو ما عبر عنه بالنظم ، وما يعبر عنه النقاد بالشكل أو الصورة « فمن مجموع العلاقات بين الألفاظ فى النص الأدبى تتكون الصورة وفيها تظهر البلاغة أو الجمالية »(٦٩) ٠

وللقرطبى فى ذلك دروس قيمة ونظرات صائبة أراها من أجل الدروس المفيدة فى النقد الأدبى ، ففيها يستشرف آفاقا فنية عالية ويلمح منها أساليب ومعانى أدبية رفيعة يحرص عليها كل أديب ذى بصر ثاقب وحس رهيف فى محاولة لابراز أسرار التنزيل ٠ كما سيتضح ذلك من خلال تفسيره لآى الذكر الحكيم ٠

من هنا كان النظر فى الأسلوب القرآنى واختلاف دلالته وتنوع مظاهره وما يهدف اليه من أغراض موضع اهتمام القرطبى ، فقد عرض لمعالجة الأساليب القرآنية بأسلوب أدبى ينم عن مدى بصره

---

(٦٨) تفسير القرطبى ص ٤٨٢ ٠

(٦٩) انظر مقدمة دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٢٢ شرح وتعليق د٠ محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٧ ٠

بالعربية وحذقه لأساليبها وعمقه فى تفهم ما ترمى اليه تلك الأساليب فى القرآن الكريم حيث عرض لأساليب المجاز بأنواعه وأساليب الالتفات والاعتراض والتكرار والقسم وغيرها ، وهو فى كلها يفسر ما احتوته تلك الأساليب بما له نظير فى أسلوب الشعر القديم .

من ذلك ما يقوله — على سبيل المثال لا الحصر — فى أسلوب القسم أول سورة القيامة اذ نجده يأتى بآراء النحويين وأهل اللغة ويعرض تلك الآراء عرض المتبحر فى اللغة العليم بأسرارها المتفهم لدقائقها وخفاياها فى وعى وأمانة فيقول : قوله تعالى « لا أقسم بيوم القيامة » قيل : ان « لا » صلة وجاز وقوعها فى أول السورة لأن القرآن متصل بعضه ببعض فهو فى حكم كلام واحد ، ولهذا قد يذكر الشىء فى سورة ويجىء جوابه فى سورة أخرى كقوله تعالى : « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون » وجوابه فى سورة أخرى : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ومعنى الكلام « أقسم بيوم القيامة » ومثله قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة فكاد صميم القلب لا يتقطع

لكنه يرفض هذا القول وينقضه ويرى أن « لا » رد لكلام الكفار حيث أنكروا البعث وكأن الله يقول لهم : ليس الأمر كذلك كما زعمتم .

ويؤيد هذا بما نقله عن « الفراء » حين قال : « وكثير من النحويين يقولون « لا » صلة ولا يجوز أن يبدأ بجحد ثم يجعل صلة لأن هذا لو كان كذلك لم يعرف خبر فيه جحد من خبر لا جحد فيه ثم يجعل صلة ، ولكن القرآن جاء بالرد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار فجاء الاقسام بالرد عليهم ، وذلك كقولهم لا والله

لا أفعل فـ « لا » رد لكلام قد مضى بتقديره ليس الأمر كما زعمتم ـ وذلك كقولك لا والله ان القيـامة لحق ، كأنك أكذبت قوما أنكروه كقـول امرىء القيس :

فلا وأبيك ابنة العامرى لا يدعى القوم أنى أفر(٧٠)

ومثل هذا القول يقوله عند تفسيره لقول الله عز وجل « لا أقسم بهذا البلـد »(٧١) .

وعند قوله تعالى فى سورة النساء « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » يقـول : « فلا رد على ما تقـدم ذكره تقـديره فليس الأمر كمـا يزعمون أنهم آمنـوا بما أنـزل اليك ثم استأنف القسم بقوله « وربك لا يؤمنون » وانما قدم « لا » على القسم اهتماما بالنفى واظهـارا لقوته ثم كرره بعد القسم تأكيـدا للاهتمام بالنفى ، وكان يصح اسـقاط « لا » الثانية ويبقى أكثـر الاهتمام بتقديم الأولى ، وكان يصح اسـقاط الأولى ويبقى معنى النفى ويذهب معنى الاهتمام »(٧٢) .

أما معالجته لأسلوب القسم فى قول الله عز وجل : « قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف » فانه يتبع فيه ما قاله أسـاطين اللغة ونحـاتها ورواده الأوائل من أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه والفراء والكسائى وأضرابهم فيقول : « قال الكسائى : فتأت وفتئت أفعل ذلك أى مازلت

---

(٧٠) تفسير القرطبى ص ٦٨٨٣ .

(٧١) راجع تفسيره ص ٧١٤٩ .

(٧٢) تفسير القرطبى ص ١٨٣٦ .

وقالَ الفراء : ان « لا » مضمر أى لا تفتأ وأنشد لامرىء القيسَ :

فقلت يمـين الله أبرح قـاعدا ولو قطعوا رأسى لديكَ وأوصالى

أى لا أبرح • وزعم الخليلُ وسيبويه أن « لا » تضـمر فى القسم لأنه ليس فيه اشكالٌ ولو كان واجبا لكان باللام والنون » • لكن القرطبى يميل الى ما قاله الفراء ويؤيده بقوله : « والذى قالَ به الفراء حسن صحيح » • ويتابع القرطبى تفسيره للآية فيقـولُ : « وانما قالَ اخوة يوسف لأبيهم ذلكَ لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك ، ويقالُ : ما فتىء وفتأ فهما لغتان ولا يستعملان الا مـع الجحد قالَ الشاعر : يصف الخيلَ ــ :

فمـا فتئت حتى كأن غبـارها سرادق يوم ذى رياح(٧٣) ترفع

كما يعرض لأسـلوب التكرير فى القرآن الكريم مبرزا بلاغتـه وبيانه الرفيع ، وذلك لما فى التكرير من تقدير للمعانى فى النفـوس وتثبيت لها فى الصدور « ألا ترى أنه لا طريق الى تحفظ العلـوم الا ترديد ما يراد تحفظه منها وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلب وأرسخ فى الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ، لعل ذلك يفتـح أذنا أو يفتق ذهنا أو يصقل عقلا طال عهده أو يحلو فهما قـد غطى عليه تراكم الصدأ »(٧٤) • ولهذا رأيناه يقول فى سبب تكرير قوله تعالى « ويلٌ يومئذ للمكذبين » فى سورة المرسلات ، « وكرره فى هذه السورة عند كل آية لمن كذب لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم

---

(٧٣) راجع تفسيره ص ٣٤٧٨ ، ٣٤٧٩ .

(٧٤) انظر الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ص ١٢٧ .

فان لكل مكذب بشيء عذابا سوى تكذيبه بشيء آخر،وربشيء كذب به هو أعظم جرما من تكذيبه بغيره فانما يقسم له من الويل على قدر ذلك وعلى قدر وفاقه جزاء وفاقا »(٧٥) •

كما رأيناه يعلل لأسلوب التكرير عند قول الله عز وجل « فبأى آلاء ربكما تكذبان » بقوله : « فالتكرير فى هذه الآيات للتأكيد والمبالغة فى التقرير واتخاذ الحجة عليهم وطرد للغفلة — ذلك أن الله تعالى عدد — فى هذه السورة — نعماءه وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلة وصفوا ونعمة وضعها بهذه وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها • كما تقول لمن تتابع فيه احسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ؟ أفتنكر هذا ؟ « ألم تكن خاملا فعززتك ؟ أفتنكر هذا ؟ ألم تكن صرورة فحججت بك ؟ أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن راجلا فحملتك ؟ أفتنكر هذا ؟ »(٧٦) •

وعن أسلوب التكرير الذى احتوته سورة الكافرون يقول : « نزل القرآن بلسان العرب ومن مذاهبهم التكرار ارادة التأكيد والافهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار ارادة التخفيف والايجاز لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء الى شيء أولى من اقتصاره فى المقام على شيء واحد »(٧٧) •

---

(٧٥) تفسير القرطبى ص ٦٩٤٩ •

(٧٦) تفسير القرطبى ص ٦٣٣٠ • والصرورة : الذى لم يحج واصله من الصر وهو الحبس والمنع — والصرورة فى شعر النابغة لو أنها عرضت لأشمط راهب عبد الاله صرورة متعبد ، الذى لم يأت النساء يعنى الراهب الذى ترك النساء (لسان العرب مادة صرر) •

(٧٧) تفسير القرطبى ص ٧٣١٦ •

وفى تكرار قـول الله تعـالى « ولله ما فى السـموات وما فى الأرض » فى الآيات رقم ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ من سورة النساء يجيب عن سر هذا التكرار بجوابين : أحدهما ــ أنه كرر تأكيدا ليتنبه العباد وينظروا ما فى ملـكوته وملكه وأنه غنى عن العالمين • الثانى ــ أنه كرر لفـوائد : فأخبر فى الأول أن الله يغنى كلا من سعته لأن لـه ما فى السموات وما فى الأرض فلا تنفد خزائنه ، ثم قال : أوصيناكم وأهل الكتاب بالتقوى وان تكفـروا فانه غنى عنكم لأن لـه ما فى السـموات وما فى الأرض ثم أعلم فى الثالث بحفظ خلقه وتدبيره اياهم بقوله « وكفى بالله وكيلا » لأن له ما فى السـموات وما فى الأرض »(٧٨) •

وفى موضع آخر من تفسيره يتحدث عما يستظهره هذا الأسلوب من أسرار آى الذكر الحكيم فيقول : « والتكرير يكون على ضربين : أحدهما : استعماله بعـد تمام الكلام كما فى قوله تعالى « فـويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » ثم قال بعد : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » ولم يقل مما كتبوا فكرر الويل تغليظا لفعلهم ومنه قـول الشـاعرة :

تعرقنى الدهر نهشا وحزا وأوجعنى الدهر قرعا وغمزا

أرادت أن الدهر أوجعها بكبريات نوائبه وصغرياتها •

والضرب الثانى : مجىء تكرير الظاهر فى موضع المضمر قبـل أن يتم الكلام كقـوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة » ، « القـارعة

---

(٧٨) تفسير القرطبى ص ١٩٧٩ •

ما القارعة » فكان القيـاس لولا ما أريد به من التعظيم والتفخيـم والحاقة ما هى والقارعة ما هى ومثله « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » يقول القرطبى : كرر أصحاب الميمنة تفخيما لما ينيلهم من جزيل الثواب وكرر لفظ المشأمة لما ينالهم من أليم العذاب • ومن هذا الضرب قول الشاعر :

ليت الغراب عداة ينعب دائبا كان الغراب مقطع الأوداج

وقد جمع عدى بن زيد المعنيين فقال :

لا أرى الموت يسـبق الموت شىء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر الموت ثلاثا ــ وهو من الضرب الأول ــ ومنه قول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هنـد وهند أتى من دونها النأى والبعد

فكرر ذكر محبوبته ثلاثا تفخيما لها(٧٩) :

كما يبين عن سر تـكرار نفى الألوهية عن المخلوقات واثبـاتها لله وحده فى قوله سـبحانه « شـهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا الـه الا هو العزيز الحكيم » بقـوله « كرر لأن الأولى حلت محل الدعـوى والثانية حلت محل الحـكم أو الأولى وصف وتوحيد والثانية رسم وتعليم يعنى قولوا لا الـه الا الله العزيز الحكيم »(٨٠) •

ويعرض لقول الله عز وجل « اياك نعبد واياك نستعين » ويعـد

---

(٧٩) تفسير القرطبى ص ٣٥٥ •

(٨٠) المصدر نفسه ص ١٢٨٥ •

هذا الأسلوب من أساليب النظم الراقى والنسق العالى لأنه من قبيل الالتفات الذى جرى عليه البيان القرآنى اذ فيه نشاط للسامع وايقاظ للمشاعر وتنبيه الغافل ، وهذه الصفات من أهم خصائص الأسلوب الأدبى . ذلك أن الكلام اذا نقل من أسلوب الى اسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وايقاظا للاصغاء اليه من اجرائه على أسلوب واحد ، ويقول وقوله تعالى : « اياك نعبد » رجع من الغيبة الى الخطاب على التلوين لأن أول السورة الى هاهنا خبر عن الله تعالى وثناء عليه و « نعبد » معناه نطيع ، ونطق المكلف به اقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى و « اياك نستعين » أى نطلب العون والتوفيق » وفى سر تقديم المفعول على الفعل فى هذا الاسلوب يتساءل القرطبى فيقول : « ان قيل لم قدم المفعول على الفعل ؟ ويجيب عن هذا التساؤل باجابتين :

أولاهما : انه قدم اهتماما وشأن العرب تقديم الأهم .

ثانيا : لئلا يتقدم ذكر العبد على المعبود سبحانه وتعالى(٨١) .

وفى قوله تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » من سورة يونس يقول القرطبى : « وقوله « وجرين بهم » خروج من الخطاب الى الغيبة وهو فى القرآن وأشعار العرب كثير . قال النابغة :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

---

(٨١) انظر تفسير القرطبى ص ١٢٦ .

وقال الله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » حيث رجع من خطاب الغيبة الى لفظ المواجهة بالخطاب فأبدل الكاف من الهاء »(٨٢) .

وفى قوله تعالى : « يأيها النبى اذا طلقتم النساء » يقول : « الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب وذلك لغة فصيحة تقديره يأيها النبى قل لهم اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وهذا هو قولهم ان الخطاب له وحده والمعنى له وللمؤمنين »(٨٣) .

كذلك لم يفت القرطبى أن يعرض لأسلوب الحقيقة وأسلوب المجاز من عقلى ومرسل واستعارة وكنائية وخبرى وانشائى مبرزا قيمة هذه الأساليب الأدبية فى النص القرآنى وأثرها فى ابراز المعنى . من ذلك ما يقوله فى قول الله عز وجل : « واسأل القرية التى كنا فيها والعير » حيث يقول : « واسأل القرية » أى أهلها فحذف ، وقيل المعنى واسأل القرية وان كانت جمادا فأنت نبى الله هو ينطق الجماد الخ ، وعلى هذا فلا حاجة الى اضمار ، والقول فى العير كالقول فى القرية سواء »(٨٤) ومن ذلك أيضا ما يقوله فى قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام : « انما أشكو بثى وحزنى الى الله » اذ يقول : « حقيقة البث فى اللغة ما يرد على الانسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها . وهو من بثثته أى

---

(٨٢) تفسير القرطبى ص ٢١٦٣ وما بعدها .
(٨٣) المصدر نفسه ص ٦٦٢٧ .
(٨٤) تفسير القرطبى ص ٣٤٧٥ .

فرقته ، فسميت المصيبة بنا مجازا • قال ذو الرمة :

وقفت على ربع لميـة ناقتى فمازلت أبكى عنـده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه(٨٥)

وفى قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » يشير القرطبى الى الاستعارة فى الحرف فى قول الله « ليكون » بقوله : « اللام فى « ليكون » لام العاقبة ولام الصيرورة لأنهم انما أخذوه ليكون لهم قرة عين فكان عاقبة ذلك ان كان لهم عدوا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر :

وللمنايا تربى كل مرضعة ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر :

فللموت تغذو الوالدات سخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن

أى فعاقبة البناء الخراب وان كان فى الحال مفروحا به »(٨٦)•

وما يقوله فى أسلوبى الكناية والتعريض وهو يعرض لسؤال الملكين اللذين دخلا على داود ــ عليه السلام ــ فى محرابه يسألانه وابتدره أحدهما طالبا حكمه فى قضية أخوين : أحدهما له تسع وتسعون نعجة وللثانى نعجة واحدة فقال الأول للثانى أنزل لى عن نعجتك • وهذا ما صاغه القرآن الكريم بأسلوبه الراقى البليغ حين يقول على لسان الثانى : « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة

---

(٨٥) المصدر السابق ص ٣٤٨٠ •

(٨٦) المصدر نفسه ص ٤٩٦٨ وسخالها : أولادها •

وله نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب » يقول القرطبي : « والعرب تكنى عن المرأة بالنعجة والشاة لما هي عليه من السكون وضعف الجانب . قال ابن عون :

أنا أبوهن ثلاث هنه ... رابعة في البيت صغراهنه
ونعجتي خمسا توفيهنه ... ألا فتى سمح يغذيهنه
طي النقا في الجوع يطويهنه ... ويل الرغيف ويله منهنه

وقال الأعشى :

فرميت غفلة عينه عن شاته ... فأصبت حبة قلبها وطحالها

يقول القرطبي : « وهذا من أحسن التعريض حيث كنى بالنعاج عن النساء . وكان هذا من الملكين تعريضا وتنبيها كقولهم ضرب زيد عمرا وما كان ضرب ولا نعاج على التحقيق »(٨٧) .

كما يشير الى تنوع الاسلوب في آية واحدة في حكاية يرد بها عن الأصمعي وقد سمع جارية أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله ... قبلت انسانا بغير حله
مثل الغزال ناعما في دله ... فانتصف الليل ولم أصله

فقال لها : « قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو بعد هذا فصاحة مع قول الله تعالى « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين »(٨٨) .

---

(٨٧) تفسير القرطبي ص ٥٦١٦ ، ٥٦١٧ .
(٨٨) المصدر السابق ص ٤٩٦٨ .

كما يشير الى الاسلوب الكنائى فى قول الله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض » عند أغراقه فرعون وجنده وأنه لم يكترث لفقدهم أحد من مخلوقات الله سبحانه لعدم عظم المصيبة فيهم،يشير القرطبى الى هذا الاسلوب بقوله : « وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم : بكت له السماء والأرض أى عمت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق وبكته الليالى الشاتيات • ويتمثل القرطبى بقول يزيد بن مفرغ الحميرى :

فالريح تبكى شجوها والبرق يلمع فى الغمامة

وبيت جرير :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمر

وببيت ليلى بنت الشيبانى ترثى أخاها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

ويقول : « وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه • وقيل فى الكلام اضمار كقوله تعالى : « واسأل القرية » أى ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة بل سروا بهلاكهم »(٨٩) •

والأسلوب القصصى كذلك له نصيب فى الاتجاه الأدبى لتفسير القرطبى ، فقد وجدناه يعرض هذا الاسلوب ويفصل فى تفسيره ما أثر من تفاسير قصصية للآيات القرآنية ويقر هذه القصص اذا كانت لا تصطدم والعقيدة الصحيحة •

---

(٨٩) تفسير القرطبى ص ٥٩٥٩ ، ٥٩٦٠ – ويشير بقوله « وقيل فى الكلام اضمار » الى المجاز المرسل •

فمما لا يمس عقيدة ولا يطعن فى عصمة نبى كان يتسمح فيه ويورده ويستطرد فيه استطرادات أدبية كما فى قصة « موسى » عليه السلام مع الرجل الصالح ورغبة ابنته حين رأت منه القوة والأمانة والعفة فقالت لأبيها : « يأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » فى الزواج منه وعرض الرجل عليه أن يزوجه من احدى ابنتيه على أن يؤدى مهرها بأن يعمل عنده بالأجر ثمانى سنوات فان أتم عشرا فذلك تطوع من موسى عليه السلام وذلك ما يقصه القرآن الكريم بقوله : « انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين » فقال له موسى : « ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل » .

وكقصته عليه السلام مع فرعون والسحرة وكيف عرف السحرة طريق الحق فسلكوه وقالوا : « آمنا برب العالمين رب موسى وهارون » على الرغم من وعيد فرعون اياهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل وقولهم له — غير مكترثين بتهديداته ووعيده — « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ... انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » .

وغير ذلك من قصص الأنبياء التى أوردها كتاب الله عز وجل ، كل ذلك عالجه القرطبى بأسلوب أدبى قصصى فيه السرد والحبكة والعقدة والحل على ضوء ما ورد فى القصص القرآنى مفسراً مفردات تلك القصص شارحا أسلوبها بما أثر عن شعراء العرب الخاص وان

كان يؤخذ عليه تتابع الاستطرادات فى القصة التى يتناول تفسيرها بكثرة ما ينقل من أقوال السلف الا ان هذه الاستطرادات بكثرة النقول كانت سمة عصره وعلى أيه حال فهذه الاستطرادات وتلك النقول ان دلت على شيء فانما تدل على كثرة مطالعاته وغزارة معلوماته وسعة ثقافته ووفرة معارفه •

أما النقول القصصية التى تصطدم وشرع الله أو التى تتعارض وعصمة الأنبياء فان القرطبى كان يزيفها ويرفضها بشدة بل ويستقبحها كالذى روى عن قصة داود عليه السلام من انه « حدث نفسه ان ابتلى أن يعتصم — أى يصبر — فقيل له : انك ستبتلى وتعلم اليوم الذى تبتلى فيه فخذ حذرك • فأخذ الزبور ودخل المحراب ومنع من الدخول عليه ، فبينما هو يقرأ الزبور اذ جاء طائر كأحسن ما يكون من الطير ، فجعل يدرج بين يديه فهم ان يتناوله بيده فاستدرج حتى وقع فى كوة المحراب فدنا منه ليأخذه فطار فاطلع ببصره فأشرف على امرأة تغتسل فلما رأته غطت جسدها بشعرها فوقعت فى قلبه ، وكان زوجها غازيا فى سبيل الله وهو « اوريا بن حنا » فكتب داود الى أمير الغزاة أن يجعل زوجها فى حملة التابوت وكان حملة التابوت أما أن يفتح الله عليهم أو يقتلوا فقدمه فيهم فقتل ، فلما انقضت عدتها خطبها داود واشترطت عليه ان ولدت غلاما أن يكون الخليفة بعده ، وكتبت عليه بذلك كتابا وأشهدت عليه خمسين رجلا من بنى اسرائيل ، فلم تستقر نفسه حتى ولدت سليمان وشب وتسور الملكان وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه(٩٠) هذا ما زينه القصاص •

---

(٩٠) تفسير القرطبى ص ٥٦١٠ •

وقد ذهب القرطبي مفندا هذه القصة ورافضها مبينا أنها غير صحيحة لا سند لها فهي من قبيل الاسرائيليات التي يجب طرحها اذا يقول : « قد جاءت أخبار وقصص في أمر داود عليه السلام وأوريا وأكثرها لا يصح ولا يتصل اسناده ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها الا بعد المعرفة بصحتها وأصح ما روى في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير قالا : ما زاد داود عليه السلام على أن قال : « أكفلنيها » أي انزل لي عنها،يقول القرطبي : فهذا أجل ما روى في هذا • ومن تخطى الى غير هذا فانما يأتي بما لا يصح ويلحقه فيه اثم عظيم »(٩١) •

وفي رأينا أن أجل مما تقدم ما ذكره الطبري : « أن داود عليه السلام كان قد أقدم على خطبة امرأة قد خطبها غيره يقال هو «أوريا» فمال القوم الى تزويجها من داود راغبين فيه وزاهدين في الخاطب الأول ولم يكن بذلك داود عارفا وقد كان يمكنه أن يعرف ذلك فيعدل عن هذه الرغبة وعن الخطبة بها فلم يفعل ذلك من حيث أعجب بها اما وصفا أو مشاهدة على غير تعمد وقد كان لداود عليه السلام من النساء العدد الكثير وذلك الخاطب لامرأة له فنبهه الله تعالى على ما فعل بما كان من أمر الملكين وما أورداه من التمثيل على وجه التعريض لكي يفهم من ذلك موقع العتب فيعدل عن هذه الطريقة ويستغفر ربه من هذه الصغيرة »(٩٢) •

---

(٩١) المصدر السابق ص ٥٦١٩ •

(٩٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري المجلد العاشر جـ ٢ ـ ٢٣ ص ٩٦ طبعة دار المعرفة بيروت لبنان سنة ١٩٨٧م •

ويعرض القرطبي للمزاعم التي ذكرت في القصة ويفندها من ذلك قوله : « وأما قولهم انها لما أعجبته أمر بتقديم زوجها للقتل في سبيل الله ، فهذا باطل قطعا فان داود صلى الله عليه وسلم لم يكن ليريق دمه في غرض نفسه ، وليس في القرآن أن ذلك كان ولا أنه تزوجها بعد زوال عصمة الرجل عنها ولا ولادتها سليمان فعمن يروى هذا ويسند ؟ وعلى من في نقله يعتمد ؟ وليس يأثره في الثقات أحد ... وكل ما في الأمر أنه لما كان نبيا وله تسع وتسعون عاتبه الله وأنكر عليه أن يتشاغل بالدنيا بالتزيد منها فأما غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه » وينقل عن علي رضي الله عنه قوله : « من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جادة وهو حد الفرية على الأنبياء »(٩٣) .

هذا . وقد رأيناه يجيء بالشعر الذي يجري على نسق تلك الأساليب القرآنية ليؤكد على أن القرآن الكريم انما يتسق مع النسق العالي من أساليب العربية الفصحى ليدل بذلك على أن القرآن معجز في ألفاظه وأساليبه ومعانيه وصوره مع أنه يجري على طريقة العرب في الكلام ولكنهم عجزوا عن الاتيان بمثله بل انهم عجزوا عن الاتيان بسورة من مثله على حد ما يذكر لنا القرآن نفسه : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » وقوله « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله »

---

(٩٣) انظر القرطبي من ص ٥٦١٠ ـ ٥٦٢١ .

وصدق الله العظيم اذ يقول : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » •

من هنا رأينا القرطبى يكثر من ايراد الشعر القديم المنسوب الى شعراء العرب الخلص ليدلل من طرف خفى على اعجاز القرآن الكريم وليثبت بما لا يدع مجالا للشك • ان أساليبه جاءت على أعلى مستوى وصلت اليه أساليب العرب فى طرائق تعبيراتهم • من ذلك على سبيل المثال ما يقوله فى الاسلوب الذى ينتظم كلمة « لعل » من مثل قول الله تعالى : « لعلكم تتقون » • يقول القرطبى : « وهذا ما كان مثله فيما ورد فى كلام الله تعالى من قوله « لعلكم تعقلون ، لعلكم تشكرون ، لعلكم تذكرون ، لعلكم تهتدون » فيه ثلاث تأويلات :

الأول : أن لعل على بابها من الترجى والتوقع والترجى والتوقع انما هو فى حيز البشر فكأنه قيل لهم : افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا وأن تتقوا وأن تشكروا • هذا قول سيبويه •

الثانى : أن العرب استعملت « لعل » مجردة من الشك بمعنى لام كى فالمعنى لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا ... نكف ووثقتم لنا كل موثق
فلما كففنا الحرب كانت عهودهم ... كلمع سراب فى الملا متألق

أى كفوا الحروب لنكف — ولو كانت لعل هنا شكالم يوثقوا لهم كل موثق • وهذا القول عن قطرب والطبرى •

الثالث : لعل بمعنى التعرض للشىء • كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا أو لأن تذكروا أو لأن تتقوا والمعنى فى قوله

« لعلكم تتقون » أى لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم الله به وقاية بينكم وبين النار • ومنه قول على رضى الله عنه : اذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا بالنبى صلى الله عليه وسلم أى جعلناه وقاية لنا من العدو • وقال عنترة :

ولقد كررت المهر يدمى نحره حتى اتقتنى الخيل بابن خذام(٩٤)

ومن ذلك ما يذكره عند تفسيره لقول الله عز وجل « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » يقول القرطبى : « واشتروا من الشراء والشراء هنا مستعار والمعنى استحبوا الكفر على الايمان كما قال الله تعالى : « استحبوا العمى على الهدى » فعبر عنه بالشراء لأن الشراء انما يكون فيما يحبه مشتريه فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة فلا لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون ايمانهم ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الايمان وانما أخرجه بلفظ الشراء توسعا لأن الشراء والتجارة راجعان الى الاستبدال والعرب تستعمل ذلك فى كل من استبدل شيئا بشىء • قال أبو ذؤيب

وان تزعمينى كنت أجهل فيكم فانى اشتريت الحلم بعدك بالجهل

أما قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » فان القرطبى يوضح أسلوب المجاز العقلى بما ورد فى الشعر العربى فيقول : « أسند تعالى الربح الى التجارة على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك وخسرت صفقتك ، وقولهم : ليل قائم ونهار صائم • والمعنى ربحت

---

(٩٤) تفسير القرطبى ص ١٩٥ وما بعدها •

وخسرت فى بيعك وقمت فى ليلك وصمت فى نهارك • قال الشاعر :

نهـــارك هائم وليلك نـــائم كذلك فى الدنيا تعيش البهائم(٩٥)

وعند تصوير القرآن لحـــال المنافقين حين أعرضـــوا عن الحق واختاروا الضلالة على الهدى ، وتشبيه تلك الحال بحال من اســـتوقد نارا فلما انطفأت النار تحير وتخبط فى الظلمات فلم يعرف طريقـــه وأصبح كالأصم الأبكم الأعمى الذى لا يهتدى الى شىء ولا يعـــرف طريقا يرجع اليه أو كمن نزل عليه مطر شديد مصحوب بما فيه هلاكه من ظلمة مخيفة وصوت شديد مزعج ونار تحرق وريح تدمر • وذلك قوله تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بـــكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » •

يقول القرطبى : « وليس الغرض مما ذكرناه نفى الادراكات عن حواسهم جملة وانما الغرض نفيها فى جهة ما » ويمضى يوضح ذلك بما ورد فى أشعار العرب اذ يقول : «ولقد أحسن الشاعر حيث قال :

وعوراء الكلام صممت عنها ولو أنى أشـــاء بها سميع

وقال آخر :

أعمى اذا ما جارتى خرجت حتى يوارى جارتى الجدر

وعند تفسيره لقوله تعالى « أو كصيب من السماء » يفسر «أو» بمعنى الواو ويستشهد بقول الشاعر :

وقد زعمت ليلى بأنى فاجـــر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

وقال الآخـــر :

---

(٩٥) تفسير القرطبى ص ١٨٢ وما بعدها •

نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

كما يفسرها بمعنى التخيير ويقول : « وقيل « أو » للتخيير أى مثلوهم بهذا أو بهذا الا على الاقتصار على أحد الأمرين والمعنى أو أبقاهم كأصحاب صيب » • ويمضى يفسر مفردات الآية بما جاء فى أشعار العرب فيقول : « والصيب : المطر واشتقاقه من صاب يصوب اذا نزل قال علقمة :

فلا تعدلى بينى وبين معمر سقتك روايا المزن حيث تصوب

و « السماء » : كل ما علاك فأظلك ، ومنه قيل لسقف البيت : سماء ، والسماء : المطر سمى به لنزوله من السماء ، قال حسان ابن ثابت :

ديار من بنى الحسحاس قفر تعفيها الروامس والسماء

وقال آخر :

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

ويقال لظهر الفرس أيضا سماء لعلوه قال طفيل :

وأحمر كالديباج أما سماؤه فريا وأما أرضه فمحول(٩٦)

وفى تصوير حالة الظالمين وموقفهم بين يدى الله يوم القيامة حيث هم « مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم

---

(٩٦) انظر تفسير القرطبى ص ١٨٦ – ١٨٧ •

هواء » يقول القرطبى : « لا يرتد اليهم طرفهم : أى لا ترجع اليهم أبصارهم من شدة النظر فهى شاخصة النظر فسمى النظر طرفا لأنه به يكون . يقال طرف الرجل يطرف طرفا اذا أطبق جفنه على الآخر . والطرف . العين . قال عنترة :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

وقال جميل :

وأقصر طرفى دون جمل كرامة لجمل وللطرف الذى أنا قاصره

ويأخذ فى بيان ما تحمله ألفاظ الآية من معنى ويستدل على كل معنى بما يؤيده من التراث الشعرى الذى هو كنز لغة الأمة ومعدنها وسجل مفاخرها فيفسر « مهطعين » بمعنى مسرعين ويؤيد هذا المعنى بما جاء فى قول الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين الى السماع

ومنه قوله تعالى : « مهطعين الى الداع » أى مسرعين .

كما يفسر الاقناع بالرفع فيقول : « مقنعى رءوسهم » أى رافعى رءوسهم يطرقون فى ذل ويؤيد تفسيره هذا بقول الشماخ يصف ابلا

يباكرن العضاه بمقنعات نواجذهن كالحدأ الوقيع

أى برءوس مرفوعات . ومنه قيل قنع الرجل اذا رضى أى رفع

رأسه عن السؤال » (٩٧) .

ويقف عند قول الله تعالى « وأفئدتهم هواء » فيفسر الأفئدة بأنها الخالية من كل خير فهى خاوية خربة متخرقة ليس فيها خير ويقول : « والهواء فى اللغة المجوف الخالى ومنه قول حسان يهجو أبا سفيان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء(٩٨)

ويعرض لقول الله تعالى : « مقصورات في الخيام » وصفا للحور العين فيفسر المقصورات بأنهن المحبوسات المستورات فى الحجال — أى البيوت — حبس صيانة وتكرمة ليس بالطوافات فى الطرق وقد قصرن على أزواجهن فلا يردن بدلا منهم . ويأتى ببيتين لكثير عزة يؤديان صحة تفسيره هما :

وأنت التى حببت الى كل قصيرة
الى ، وما تدرى بذاك القصائر
نيت قصيرات الحجال ولم أرد
قصار الخطا شر النساء البحاتر(٩٩)

---

(٩٧) تفسير القرطبى ص ٣٦٠٦ . والعضاه فى بيت الشماخ : الشجر العالى له شوك ، والحدا جمع حداة : وهى الفأس ذات الرأسين، والوقيع : الحديد . شبه أسنان الابل بالفؤوس فى الحدة . ومعنى البيت: أن الابل خرجت مبكرة لتأكل من هذ الشجر العالى وهى ترفع رءوسها نحوه بأسنان تشبه الفؤوس فى حدتها .

(٩٨) تفسير القرطبى ص ٣٦٠٦ ، والنخب : الجبان ، والمجوف الخالى الذى لا قلب له . كأنه منتزع الفؤاد .

(٩٩) المصدر نفسه ص ٦٣٥٩ . والبحاتر جمع بحترة بضم الباء القصيرة الممتلئة شحما .

ويمضى مع اسم الله « المؤمن » فيفسره بأنه : الذى يؤمن أولياءه من عذابه ويؤمن عباده من ظلمه فهو من الأمان الذى هو ضد الخوف كما قال تعالى « وآمنهم من خوف » ويستدل لذلك بقول النابغة :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند(١٠٠)

وعند تفسيره لقول الحق جل وعلا « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » يقول : « خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا وخلق لهم منها التعارف وجعل لهم بها التواصل للحكمة التى قدرها وهو أعلم بها ، وجعل التقوى هى الأساس المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب وأن خيار الناس فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا » .

وتسعفه مطالعاته الأدبية ومحفوظاته الشعرية فيورد شعرا لعلى ابن طالب رضى الله عنه فى هذا المعنى وهو قوله :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فان لم يكن لهم من أصلهم حسب يفاخرون به ، فالطين والماء
ما الفضل الا لأهل العلم انهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه وللرجال على الأفعال سيماء

---

(١٠٠) المصدر نفسه ص ٦٥٢٥ . والغيل : الشجر الملتف الكثيف ، والسند : أعلى سطح الجبل .

وضد كل امرىء ما كان يجهله والجاهلون لأهل العلم أعداء (١٠١)

كما يتمثل بقول الشاعر على أن المعيار الحقيقى فى التفاضل هو التقوى وليس الغنى والثراء ، ويقول وأنشدوا فى ذلك :

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى
من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقى (١٠٢)

فالأبيات تفسير أدبى للآية الكريمة :

وغير ذلك الشعر كثير ، ولكنى أكتفى بما ذكرت من أمثلة ، ومن أراد الاستزادة فليرجع الى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » ليرى كثيرا من الأشعار مبثوثا فى ثنايا تفسيره لآى الكتاب العزيز .

وهكذا يمضى القرطبى يدرس الأساليب الأدبية فى القرآن الكريم مستجليا ما تهدف اليه من روعة بيان ودقة أداء كاشفا عن حسنها وجمالها منبها الى مواطن الحسن والجمال فى كل أسلوب مدللا على ما يقول من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم وروائع المأثورات من الشعر العربى الأصيل .

---

(١٠١) تفسير القرطبى ص ٦١٦٢ .
(١٠٢) المصدر السابق ص ٦١٦٦ .

٦ ــ اهتمام القرطبى بالشعر فى تفسير القرآن الكريم :

من مثل هذه الأشعار التى ذكرناها والتى أورد الكثير منهـا فى تفسـيره متضـمنة معانى الآيـات التى يفسرها شارحا بها ألفـاظ وأساليب القرآن الكريم ومدللا بها على أن أسلوب القرآن المجيـد انما جاء على نسق الأسـاليب العربية الراقيـة التى عرفها العـرب الأوائل ونظموا على ضوئها أشعارهم التى انتظمت أرقى الأسـاليب وأنصعها فصاحة وبلاغة والتى كانت موضع اعزازهم •

نقول من هذه الأشعار التى حفل بها تفسيره نستطيع أن نتبين موقفه من الشعر • فقد رأى « أن الشـعر فن هادف وأن غرضـه محمود ما لم يدفع الى معصـية أو يقلب الحقائق كأن يفضـل أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم أو يبهت البرىء ويفسق التقى وكأن يفرط فى القول بما لم يفعله المرء رغبة فى تسلية النفس وتحسين القول(١) » كالذى رواه القرطبى من أن النعمان بن عدى بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

من مبلـغ الحسـناء أن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
اذا شـئت غنتنى دهاقين قرية ... ورقاصة تجذو على كل منسـم
فان كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... ولا تسـقنى بالأصغر المتلمم
لعـل أمـير المؤمنين يسـوءه ... تنادمنـا بالجوسـق المتهدم

فبلغ ذلك عمر فأرسل اليه بالقـدوم عليه • وقال : أى والله أنى ليسوءنى ذلك فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت ، وانما

---

(١) انظر تفسير القرطبى ص ٤٨٦٤ •

كان فضلة من القول وقد قال الله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » • فقال عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ، ولكن لا تعمل لى عملا أبدا وقد قلت ما قلت »(٢) •

أما الشعر الهادف الذى يدعو الى فضيلة أو يذم رذيلة فهو الحسن المقبول وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم وطلب من « الشريد بن سويد » — كما يذكر القرطبى — أن ينشده شعرا •

يقول القرطبى : « روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : « هل معك من شعر أمية بن الصلت شىء ؟ قلت : نعم • قال: هيه فأنشدته بيتا • فقال : هيه • ثم أنشدته بيتا • فقال هيه : حتى أنشدته مائة بيت •

ثم يمضى القرطبى فيستنتج بثاقب فكره دليلا على حفظ الشعر والاعتناء به اذا تضمن الحكم والمعانى المستحسنة شرعا وطبعا وقد استكثر النبى صلى الله عليه وسلم من شعر أمية لأن أمية كان حكيما وقد أنشد كعب النبى قصيدته « بانت سعاد » والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر عليه شيئا • بل ان القرطبى يرى أن الشعر الذى يتضمن ذكر الله والثناء عليه ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الدفاع عنه مندوب اليه كقول حسان يدافع عن رسول الله ويهجو أبا سفيان والمشركين :

---

(٢) تفسير القرطبى ص ٤٨٦٥ •

ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... فأنت مجوف نخب هواء
بأن سيوفنا تركت عبدا ... وعبد الدار سادتها الاماء
هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتشتمه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركا برا حنيفا ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
وان أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء

كما استحب الشعر الذى فيه مدح للصحابة رضى الله عنهم وقد استحسن شعرا لمحمد بن سابق يمدح صحابة رسول الله حيث قال :

انى رضيت عليا للهدى علما ... كما رضيت عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت أبا حفص وشيعته ... وما رضيت بقتل الشيخ فى الدار
كل الصحابة عندى قدوة علم ... فهل على بهذا القول من عار
ان كنت تعلم أنى لا أحبهم ... الا من أجلك فاعتقنى من النار

وفى قول الآخر :

حب النبى رسول الله مفترض ... وحب أصحابه نور ببرهان
من كان يعلم أن الله خالقه ... لا يرمين أبا بكر بسهتان
ولا أبا حفص الفاروق صاحبه ... ولا الخليفة عثمان بن عفان
أما على فمشهور فضائله ... والبيت لا يستوى الا بأركان (٣)

بل ان القرطبى ليذهب فى الشعر الى أبعد من هذا الحد الذى قرره آنفا فيجوز فى الشعر اذا كان بهذه المثابة ــ الاستعارات والتشبيهات

---

(٣) تفسير القرطبى ص ٤٨٦٢ ، ٤٨٦٣ .

وان استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد ويقول : « وقد أنشد كعب ابن زهير النبى صلى الله عليه وسلم :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم أثرها لم يغد مكبول
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا ... الا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول

فجاء فى هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر فى تشبيه ريقها بالراح(٤) .

ويخلص من كل ذلك الى نتيجة مؤداها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع الشعر وشجعه حين قال فى الشعر الذى قاله حسان وابن رواحة يردان به على المشركين : « انه لأسرع فيهم من رشق النبل »(٥) وأبو بكر أنشده فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا ؟ ! ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولى النهى وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة الا وقد قال الشعر أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، وقد قال الشافعى : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام . يعنى ان الشعر ليس يكره لذاته وانما يكره لمضمناته »(٦) .

---

(٤) المصدر نفسه ص ٤٨٦٣ .
(٥) أخرجه مسلم والترمذى .
(٦) انظر تفسير القرطبى ص ٤٨٦٣ ، ٤٨٦٧ .

٧ ــ الصور القرآنية فى تفسير القرطبى :

وللصورة القرآنية نصيب كبير فى اتجاه القرطبى الأدبى لتفسيره لآيات القرآن الكريم • فقد عرض للصورة الأدبية فى القرآن عرض الأديب الذواقة الخبير بعناصرها الفاهم لأسرارها المحيط لأجزائها ، وان كان ــ أحيانا ــ يكتفى بايضاح الصورة الكلية دون أجزائها(٧) كالذى رأيناه له عند تفسيره لقول الله عز وجل حديثا عن المنافقين وتصوير حالهم العجيبة بمن أوقد نارا ليستضىء فما أوقدت النار حتى انطفأت وتركته فى ظلام حالك وسواد دامس وفزع وخوف شديدين • فبقى متحيرا لا يعرف طريقا يهتدى اليه وذلك قوله تعالى « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون » •

يقول القرطبى موضحا تلك الصورة : « ضرب الله للمنافقين هذا المثل فشبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة الى العمى بمن استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله ••• فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى ، فكذلك المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغى على الرشد وفى مثل هذا دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون الى سبيل خير

---

(٧) يراجع ما قاله عن الصورة الجزئية فيما كتبه عن اهتمامه بالأسلوب القرآنى •

ولا يعرفون طريقا للنجـاة فهم كالصم لا يسمعون خيرا كالبكـم لا يتكلمون بما ينفعهم وكالعمى لا يبصرون الهدى ولا يبتغون سبيله، ثم ثنى ــ سبحانه ــ بتمثيل آخر لهم زيادة فى الكشف والايضـاح فقال : « أو كصـيب من السماء فيه ظلمـات ورعد وبرق يجعلـون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » أى مثلهم فى حيرتهم وترددهم كمثل قوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعـدت له السماء مصحوبا بالبرق والرعد والصواعق وقد وضعوا أصابعهم فى آذانهم خشية الموت من تلك الصواعق فالظلمات مثل لما يعتقـدونه من الكفر والرعد والبرق والصواعق مثل لما يخوفون »(٨) .

وكتصويره للمنفق المتصدق بالزارع فى قول الله تعالى « مثـل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة » اذ يقول : « مثل الذين ينفقون أموالهم كمثـل زارع زرع فى الأرض حبة فأنبتت الحبة سبع سنابل فى كل سـنبلة مـائة حبـة .

فشبه المتصدق بالزارع وشبه الصـدقة بالبذر ثم قال تعـالى « والله يضاعف لمن يشاء » فيكون مثل المتصدق مثل الزارع ان كان حاذقا فى عمله ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر ــ فكذلك المتصدق اذا كان صالحا والمال طيبا ويضعه موضـعه فيصير الثواب أكثر »(٩) .

---

(٨) تفسير القرطبى ص ١٨٤ ، ١٩٠ .
(٩) المصدر نفسه ص ١١١٦ .

وكتوضيحه لصورة المركبة عند تفسيره لقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا » اذ يقول « مثل الله تعالى الذى يمن ويؤذى بصدقته بالذى ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى ، وبالكافر الذى ينفق ليقال جواد وليثنى عليه بأنواع الثناء • ثم مثل هذا المنفق أيضا بصفوان عليه تراب فظنه الظان أرضا منبتة طيبة فاذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقى صلدا • فكذلك هذا المرائى • فالمن والأذى والرياء تكشف عن النية فى الآخرة فتبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصفوان وهو الحجر الكبير الأملس »(١٠) •

وكايضاحه لصورة الصدقة من أجل ابتغاء رضوان الله ــ لا رياء ولا نفاقا ــ بصورة حديقة روت بالماء أو أصابها الندى فاخضرت أوراقها وأينعت ثمارها وآتت أكلها ضعفين •

وذلك ما يصوره الحق سبحانه وتعالى بقوله من سورة البقرة : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل» يقول القرطبى : « شبه تعالى نمو نفقات المخاصين الذين يربى الله صدقاتهم كتربية الفلو والفصيل بنما نبات الجنة بالربوة الموصوفة بخلاف الصفوان الذى انكشف عنه ترابه فبقى صلدا »(١١) •

---

(١٠) المصدر نفسه ص ١١٢٠ •

(١١) تفسير القرطبى ص ١١٢٥ • والفلو : المهر الصغير ، والفصيل: ولد الناقة ، والجنة : البستان ، والربوة : المكان المرتفع •

وكقوله عند تصوير القرآن لحالة كل منافق أو كافر عمل عملا وهو يحسب أنه يحسن صنعا فلما جاء الى وقت الحاجة لم يجد شيئا وذلك قوله تعالى : «أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت » يقول القرطبى مصورا تلك الحال « هذا مثل ضربه الله تعالى للمرائين بالأعمال يبطلها يوم القيامة وهو — أى المرائى — أحوج ما يكون الى ثوابها كمثل رجل كانت له جنة وله أطفال لا ينفعونه — ولكنهم محتاجون اليه — فكبر وأصاب الجنة اعصار أى ريح عاصف فيه نار فاحترقت فقدها وهو أحوج ما يكون اليها »(١٢) .

وحين يصور القرآن الكريم هيئة أكلة الربا وقت قيامهم من قبورهم يوم القيامة بهيئة المصروع الذى أصابه مس من الجن فهو يتعثر فى مشيته ، فما يلبث أن يقوم حتى يقع . فكذلك أكلة الربا . وذلك ما أخبر به الحق جل وعلا بقوله : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا » .

يقول القرطبى : « شبه حال القائم بحرص وجشع الى تجارة الربا بقيام المجنون لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه . وهذا كما تقول لمسرع فى مشيه يخاط فى هيئة حركاته اما من فزع أو غيره : قد جن هذا ! ، وقد شبه الأعشى ناقته فى نشاطها بالجنون فى قوله :

---

(١٢) تفسير القرطبى ص ١١٢٦ .

وتضبح عن غب السرى وكأنما ألم بها من طائف الجن أولق»(١٣)

وفى رسم القرآن الكريم صورة للأرض حينما تتزين بالنبات والأزهار بصورة عروس تزينت بأجمل الثياب وأبهى أنواع الحلى حتى اذا جاءها أمر الله دمرها وخربها كأن لم تكن عامرة كما كانت وذلك قوله تعالى من سورة يونس : «انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » نرى القرطبى يلمس هذه الصورة بقوله : « معنى الآية التشبيه والتمثيل أى صفة الدنيا فى فنائها وزوالها وقلة خطرها واللاذ بها كصفة ماء نزل من السماء فاختلط الماء بالأرض ثم ابتدأ بانماء الأرض مما يأكل الناس من الحبوب والثمار والبقول • ومما تأكله الأنعام من أنواع الكلأ حتى اذا أخذت الأرض حسنها وبهجتها وازينت بالحبوب والثمار والأزهار وأيقن أهلها أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بما فيها أمر الله بهلاكها فأصبحت محصورة مقطوعة لا شىء فيها كأن لم تكن بالأمس عامرة بالبهجة والزرع والحصاد فكما يهلك هذا الزرع هكذا كذلك الدنيا »(١٤) •

وشبيه بهذا الكلام الذى قاله فى هذه الآية أكده فى آية الكهف « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء

---

(١٣) تفسير القرطبى ص ١١٦٢ ، الأولق : شبه الجنون •
(١٤) تفسير القرطبى ص ٣١٦٦ •

مقتدرا ويزاد عليه قوله : « انما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر فى موضع ، كذلك الدنيا لا تبقى على حال واحد ، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى ، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل ، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها ، ولأن الماء اذا كان بقدر كان نافعا منبتا واذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر ، وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه »(١٥) .

وفى حديث القرآن عن شجرة الزقوم « طلعها كأنه رءوس الشياطين » يقول القرطبى فى هذه الصورة التى رسمها القرآن لهذه الشجرة : « شبهها برءوس الشياطين لقبحهم ، ورءوس الشياطين متصور فى النفوس وان كان غير مرئى . ومن ذلك قولهم لكل قبيح هو كصورة الشيطان ، ولكل صورة حسنة هو كصورة ملك ومنه قوله تعالى مخبرا عن صواحب يوسف اذ قلن عنه : « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » .

وهذا تشبيه تخييلى(١٦) ومنه قول امرىء القيس عن سيوفه : « ومسنونة زرق كأنياب أغوال » وان كانت الغول لا تعرف ولكن لما تصور من قبحها فى النفوس . وقد قال الله تعالى : « شياطين الانس والجن » فمردة الانس شياطين مرئية ومردة شياطين الجن غير مرئية،وفى الحديث الصحيح : « ولكأن نخلها رءوس الشياطين»(١٧)

---

(١٥) المصدر نفسه ص ٤٠٢٩ .

(١٦) يريد صورة متخيلة .

(١٧) تفسير القرطبى ص ٥٥٣٠ ، ٥٥٣١ .

وفى تفسيره لقول الله من سورة الزمر : « ألم تر أن الله أنـزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم جعله حطاما » يقول القرطبى : «هو مثل ضربه الله للقرآن ولصدور من فى الأرض أى أنزل من السماء قرآنا فسلكه فى قلوب المؤمنين » ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه أى دينا مختلفا بعضه أفضل من بعض ، فأما المـؤمن فيزداد ايمانا ويقينـا وأما الذى فى قلبه مرض فانه يهيج كما يهيج الزرع • وقيـل : هو مثل ضربه الله للدنيا أى كما يتغـير النبت الأخضر فيصـفر • كذلك تتغير الدنيا بعد بهجتها »(١٨) •

وفى مشهد من مشـاهد يوم القيـامة « يوم يقول المنـافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معـكم قالوا بلى ولكنكم فتنتـم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغـرور » •

رأينا القرطبى يرسم صورة هذا المشهد المؤثر فيقول : « يغشى الناس يوم القيامة ظلمة ثم يعطـون نورا يمشون فيـه : يعطى الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم ، دليله قوله تعـالى « وهو خـادعهم » •

---

(١٨) المصدر نفسه ص ٥٦٩٠ :

ثم يسلب المنافقين نورهم لنفاقهم ، فبينما هم يمشون اذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين فذلك قوله تعالى : «ربنا أتمم لنا نورنا » يقوله المؤمنون خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون فاذا بقى المنافقون فى الظلمة لايبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين « انظرونا نقتبس من نوركم » • « قيل ارجعوا وراءكم » أى قال المؤمنون لهم « ارجعوا وراءكم » الى الموضع الذى أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورا فانكم لا تقتبسون من نورنا فلما رجعوا وانعزلوا فى طلب النور « ضرب بينهم بسور » أى حاجز بين الجنة والنار « باطنه فيه الرحمة » يعنى الجنة « وظاهره من قبله العذاب » يعنى جهنم ثم ينادى المنافقون المؤمنين « ألم نكن معكم » فى الدنيا : نصلى مثل ما تصلون ونغزو مثل ما تغزون « قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم » أى أهلكتموها بالنفاق « وتربصتم » بالنبى الموت وبالمؤمنين الدوائر « وارتبتم » أى شككتم فى التوحيد والنبوة « وغرتكم الأمانى » أى الأباطيل وطول الأمل « وغركم بالله الغرور » أى الشيطان أو الدنيا »(١٩) •

وتلك صورة أخرى هى صورة المتقين الناجين بعملهم يوم الفزع الأكبر يرسمها القرطبى بقوله : « يحشر الله مع كل امرىء عمله فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح فكلما كان رعب أو خوف قال له لا ترع فما أنت بالمراد به ولا أنت بالمعنى به فاذا أكثر ذلك عليه قال : فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح حملتنى على ثقلى فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك فهى التى

---

(١٩) تفسير القرطبى ص ٦٤١٥ وما بعدها •

قال الله « وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون »(٢٠) .

وحين يتحدث القرآن عن كيفية دخول أهل النار جهنم والصفة التى يكونون عليها وقت دخولهم حيث يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما » وأن النار كلما هدأت ازدادت بهم لهيبا . كما تصوره آية سورة الاسراء : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » نرى القرطبى يلتقط هذه الصورة معبرا عنها بقوله : « انهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم الى جهنم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى هوانه وتعذيبه ، وقد عموا حين دخلوا النار لشدة سوادها وانقطع كلامهم حين قيل لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا وكلما سكنت النار زيدت التهابا من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهم من عذابهم » .

ثم يختم القرطبى تعبيره عن هذه الصورة بقوله : « وانما يحشرون على هذه الصفة التى وصفهم الله بها ليكون ذلك زيادة لهم فى عذابهم »(٢١) .

واذ يصور لنا القرآن الكريم أوضاع الكفار داخل النار وقد « قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » رأينا القرطبى يرسم تلك الصورة معبرا

---

(٢٠) المصدر السابق ص ٥٧١٨ .

(٢١) تفسير القرطبى ص ٣٩٤٩ .

عنها بقوله : « ان النار قد أحاطت بهم كاحاطة الثياب المقطوعة اذا لبسوها عليهم فصارت من هذا الوجه ثيابا لأنها بالاحاطة كالثياب يصب الماء الحار المغلى بنار جهنم على رءوسهم فينفذ حتى يخلص الى الجوف فيذاب به ما فى بطونهم ويحرق جلودهم ويحاولون الخروج من النار حين تجيش بهم وتفور فتلقى من فيها الى أعلى أبوابها فيريدون الخروج فتعيدهم الخزنة اليها بالمقامع وهى سياط من نار وتقول لهم الملائكة ذوقوا عذاب الحريق »(٣٢) .

وغير هذه الصور كثير لا يتسع المقام لذكره والاتيان عليها كلها ولكنى أكتفى بما ذكرت من نماذج وانه لفيض من فيض للصورة القرآنية مما تناوله القرطبى فى تفسيره بالايضاح والبيان . ومن أراد الاستزادة فليرجع الى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » .

٨ ـ موقفه من الاعجاز القرآنى :

من أبرز المسائل التى تعاورها العلماء بالبحث فى أثناء تفسيرهم للقرآن الكريم وردهم على منكرى النبوة مسألة الاعجاز القرآنى . فمنهم من قال : **ان القرآن معجز** بتأليفه البديع ونظمه العجيب ووصفه المتناسق وتناهيه فى الفصاحة والبلاغة . ومنهم من ذهب الى أن القرآن نفسه غير معجز وانما كان اعجازه بالصرفة بمعنى أنه كان فى امكان العرب ـ وهم أرباب البلاغة وعنهم تؤخذ الفصاحة ـ أن يأتوا بمثل القرآن ولكن الله صرف هممهم عن الاتيان بمثله وكان

---

(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٤١٩ وما بعدها .

علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فى هذا الموضوع ، فقد ذهب النظام الى القول بـ « أن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب انما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به »(٢٣) .

وقد رأى القرطبى الرأى الأول فرأى أن القرآن معجز بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه وقال : « بهذا جاء القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ... ومن فصاحة القرآن أن الله تعالى جل ذكره ذكر فى آية واحدة أمرين ونهيين وخبريين وبشارتين وهو قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » وكذلك فاتحة سورة المائدة : أمر بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن حكمته وقدرته وذلك مما لا يقدر عليه الا الله سبحانه وتعالى . وأنبأ سبحانه عن الموت وحسرة الفوت والدار الآخرة وثوابها وعقابها وفوز الفائزين وتردى المجرمين والتحذير من الاغترار بالدنيا ووصفها بالقلة بالاضافة الى دار البقاء بقوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة » الآية . وأنبأ أيضا عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين وعواقب المهلكين فى شطر آية وذلك فى قوله تعالى : « فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من

---

(٢٣) مقدمة اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ص ٧ مطبعة دار المعارف الطبعة الخامسة .

أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا »(٢٤) الى أن يصل الى قوله : « فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الاحسان وأرفع درجات الايجاز والبيان بل تجاوزت حد الاحسان والاجادة الى حيز الارباء والزيادة • هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أوتى من جوامع الكلم واختص به من غرائب الحكم اذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم فى صفة الجنان وان كان فى نهاية الاحسان وجدته أقل رتبة عن رتبة القرآن وذلك فى قوله عليه السلام : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فأين ذلك من قوله عز وجل : « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » وقوله « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » • هذا أعدل وزنا وأحسن تركيبا وأعذب لفظا وأقل حروفا على أنه لا يعتبر الا فى مقدار سورة أو أطول آية لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف وضاق المقال على القاصر المتكلف ، وبهذا قامت الحجة على العرب اذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة »(٢٥) •

وقد حصر القرطبى وجوه الاعجاز فى عشرة أشياء ثم شرع فى بيانها على النحو التالى :

١ ــ النظم البديع المخالف لكل نظم معهود فى لسان العرب وفى غيرها لأن نظمه ليس من نظم الشعر فى شىء وكذلك قال رب العزة الذى تولى نظمه « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » • وفى صحيح مسلم أن « أنيسا أخا أبى ذر » قال لأبى ذر لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال

---

(٢٤) انظر تفسير القرطبى ص ٦٧ •

(٢٥) المصدر نفسه ص ٦٨ •

يقولون : شاعر كاهن ساحر ، وكان أنيس أحد الشعراء فقال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر والله انه لصادق وانهم لكاذبون • وكذلك أقر عتبة بن ربيعة أنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم « حم » فصلت ، فاذا اعترف عتبة — على موضعه من اللسان وموضعه من الفصاحة والبلاغة — بأنه ما سمع مثل القرآن قط كان فى هذا القول مقرا باعجاز القرآن له ولضرائه من المتحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه •

٢ — الأسلوب الراقى الذى يتفوق على جميع أساليب العرب •

٣ — الجزالة التى لا تصح من مخلوق بحال • وتأمل ذلك فى سورة « ق والقرآن المجيد » الى آخرها • وقوله سبحانه « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » الى آخر السورة وكذلك قوله سبحانه « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » الى آخر السورة •

ثم يقول: «وهذه الثلاثة من النظم والاسلوب والجزالة لازمة كل سورة بل هى لازمة كل آية وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر وبها وقع التحدى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة من غير أن ينضاف اليها أمر آخر من الوجوه العشرة • فهذه سورة « الكوثر » ثلاث آيات قصار وهى أقصر سورة فى القرآن قد تضمنت الاخبار عن مغيبين : أحدهما : الاخبار عن الكوثر وعظمته وسعته وكثرة أوانيه — والثانى : الاخبار عن الوليد بن المغيرة وقد كان عند نزول الآية ذا مال وولد ، على

ما يقتضيه قول الحق ، « ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا » ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده وانقطع نسله »(٢٦) .

٤ ــ ومنها : التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .

٥ ــ ومنها : الاخبار عن الأمور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله من أمى ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها والقرون الخالية فى دهرها ، وذكر ما سأله أهل الكتاب عنه وتحدوه به من مثل قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما السلام وحال ذى القرنين فجاءهم وهو أمى من أمة أمية ليس لها بذلك علم ــ بما عرفوا من الكتب السالفة صحته فتحققوا صدقه .

٦ ــ ومنها : الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى العيان فى كل ما وعد الله سبحانه . وينقسم : الى أخباره المطلقة كوعده بنصر رسوله واخراج الذين أخرجوه من وطنه . والى وعد مقيد بشرط كقوله : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » « وان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » وشبه ذلك .

٧ ــ ومنها الاخبار عن المغيبات فى المستقبل التى لا يطلع عليها

---

(٢٦) تفسير القرطبى ص ٦٤ .

الا بالوحى • من ذلك ما وعد الله نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » الآية • ففعل ذلك ، قال الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » وقال : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين » وقال : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم » وقال : « ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » • فهذه كلها أخبار عن الغيوب التى لايقف عليها الا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين وقد أوقف عليها رسوله لتكون دلالة على صدقه صلى الله عليه وسلم •

٨ ــ ومنها : ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الأنام فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام •

٩ ــ ومنها : الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى •

١٠ ــ ومنها التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا وباطنا من غير اختلاف • قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » • فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم »(٢٧) •

---

(٢٧) تفسير القرطبى ص ٦٥ وما بعدها ، هذا وقد ذكر هذه الوجوه الباقلانى المتوفى ٤٠٣هـ فى كتابه اعجاز القرآن تحقيق السيد صقر طبع دار المعارف الطبعة الخامسة من ص ٣٣ ــ ٥٦ •

وقد رفض بشدة ما ذهب اليه « النظام » وبعض القـدرية من أن وجه الاعجاز هو المنع من معارضته والصرفة عند التحدى بمثله، وأن المنع أو الصرفة هو المعجـزة دون ذات القـرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسـورة من مثله ويقول : « وهذا فاسد لأن اجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز ... والصحيح أن الاتيان بمثل القرآن لم يمكن قط فى قـدرة أحد من المخلوقين ، ويظهر لك قصـور البشر فى أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهـده ثم لايزال ينقحها حولا كاملا ثم تعطى لآخر بعده فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لاتزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العـرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد »(٢٨) .

هذا ما ذهب اليه القرطبى فى اعجاز القرآن الكريم وهو ما يراه أهل السنة والجماعة وأكثر المعتزلة « كالجاحظ » فى كتابه « حجـج النبوة »(٢٩) وأبى زيد البلخى المتـوفى ٣٢٢هـ فى كتابه « نظـم القرآن » والرمانى المتوفى ٣٨٤هـ فى رسالته « النكت فى اعجـاز القرآن » والخطابى المتوفى ٣٨٨هـ فى رسالته « الاعجـاز »(٣٠)

---

(٢٨) تفسير القرطبى ص ٦٦ .

(٢٩) هذا الكتاب ضمن مجموعة رسائل الجاحظ نشر السندوبى سـنة ١٩٣٣م .

(٣٠) الرسالتان منشورتان مع الرسالة الشافية لعبد القاهر فى الاعجاز – وقد حقق الثلاث الرسائل محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام طبع دار المعارف بمصر بعنوان « ثلاث رسائل » .

والباقلانى المتوفى ٤٠٣هـ فى كتابه الشهير « اعجاز القرآن » وغـير هؤلاء كثيرون أخـذ عنهم القرطبى وسار عـلى نهجهم فى مسـألة الاعجـاز القرآنى •

أما عبد القاهر ــ من بين من تكلموا فى مسألة الاعجاز ــ فانه رأى أن الاعجاز يرجع الى النظم وحده ويعنى بالنظم :

١ ــ تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض بمعنى أن يتلاءم معنى اللفظة لمعنى اللفظة التى تليها فلا فصـل بين الكلام ومعناه ولا بين الصورة والمحتوى •

٢ ــ مجيء اللفظ مرتبا على المعانى المرتبة فى النفس •

٣ ــ توخى معانى النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معانى الكلم على حد قوله : « وليس النظم فى مجمل الأمر الا أن تضـع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها • فمداره ــ أى النظم ــ على معانى عـلم النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شـأنها أن تكون فيه ، وليس هو الا توخى النحو فى معانى الـكلم فلا معنى للنظم غـير توخى معانى النحو وأحكامه فيمـا بين الكلم أو فيمـا بين معـانى الكلم بتعبـير آخر »(٣١) •

وقد وقف كتابه دلائل الاعجاز على شرح نظرية النظم التى هى الأصل فى الاعجاز عنده ورفض أن يكون الاعجاز فى الصرفة أو فى الكلمة مفردة أو فى عذوبة الألفاظ وعدم ثقلها وانما الاعجـاز يكمن فى النظم وحده ويعـده البلاغة كلها •

---

(٣١) دلائل الاعجاز ص ٢٨ نشر مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٦ شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجى •

الخاتمـــــة

وبعـــــد ....

فأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه من ابراز الاتجـــاه الأدبى الذى اتجـــه اليه القرطبى فى تفســـيره القـــرآن الكريم •

ولا أدعى أننى أتيت على كل الاتجاهات الأدبية التى اتجه اليها فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » فالكتاب فى الدرجة الأولى كتاب لبيان الأحكام الشرعية وتوضيح للمسائل الفقهية التى تضمنها كتاب الله عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

ولعل فى النماذج التى أوردتها والتى احتوتها عنـــاصر البحث تكون قد أوضحت بجلاء الاتجاه الأدبى • وهو هدفى ومقصـــدى ، والله من وراء القصد « وعلى الله قصد السبيل » •

والحمد لله فى الأولى والآخرة •••

أستاذ الأدب والنقد المساعد

دكتور / محمود جمعة أمين

ثبت المراجـــع

١ ــ الأدب الاسلامى بين النظرية والتطبيق د٠ على على صـــبح الجزء الأول القاهرة ١٤٠٨/١٩٨٧م المكتبة الأزهرية للتراث٠

٢ ــ التصوير القرآنى لتعاقب الليل والنهار د٠ على على صـــبح ص ٣ ــ ٢٥ بحث فى مجلة اللغة العربية العدد الثالث عشر عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م ٠

٣ ــ اعجاز القرآن للباقلانى طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨١م

٤ ــ ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجـــاحظ طبـــع دار المعارف سنة ١٩٦٨م ٠

٥ ــ جامع البيان فى تفســـير القرآن لابن جـــرير الطبرى طبـــع دار المعرفة بيروت سنة ١٩٨٧م ٠

٦ ــ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى طبع دار الشعب بدون تاريخ٠

٧ ــ الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية د/ أحمد أحمد بدوى مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٧٢م ٠

٨ ــ دلائل الاعجاز لعبد لقاهر الجرجانى شرح وتعليق د/ محمد عبد المنعم خفاجى مكتبة القاهرة سنة ١٩٧٦م ٠

٩ ــ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى بيروت بدون تـــاريخ ٠

١٠ ــ صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى طبع دار احيـــاء الكتب العربية سنة ١٩٥٥م ٠

١١ ــ طبقات المفسرين للسيوطى طبع ليدن سنة ١٨٣٨م ٠

١٢ ــ فتح البارى على شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق محمد فؤاد الأرناؤوطى طبع دار الفكر بدون تاريخ •

١٣ ــ الكشاف للزمخشرى طبع دار الفكر سنة ١٩٧٢م •

١٤ ــ لسان العرب لابن منظور طبع دار الشعب بدون تاريخ •

١٥ ــ مجلة الوعى الاسلامى بحث عن التصوير القرآنى د/ على على صبح العدد ٣٠٣ عام ١٩٨١م •

١٦ ــ مجموعة رسائل الجاحظ نشر السندوبى سنة ١٩٣٣م •

١٧ ــ مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون طبع المطبعة البهيــة بدون تــاريخ •

١٨ ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت سنة ١٩٦٨م •